أرواح شاردة



الطبعة الثانية

ينــاير ١٩٤٢

أرواح شاردة



الطبعة الثانية

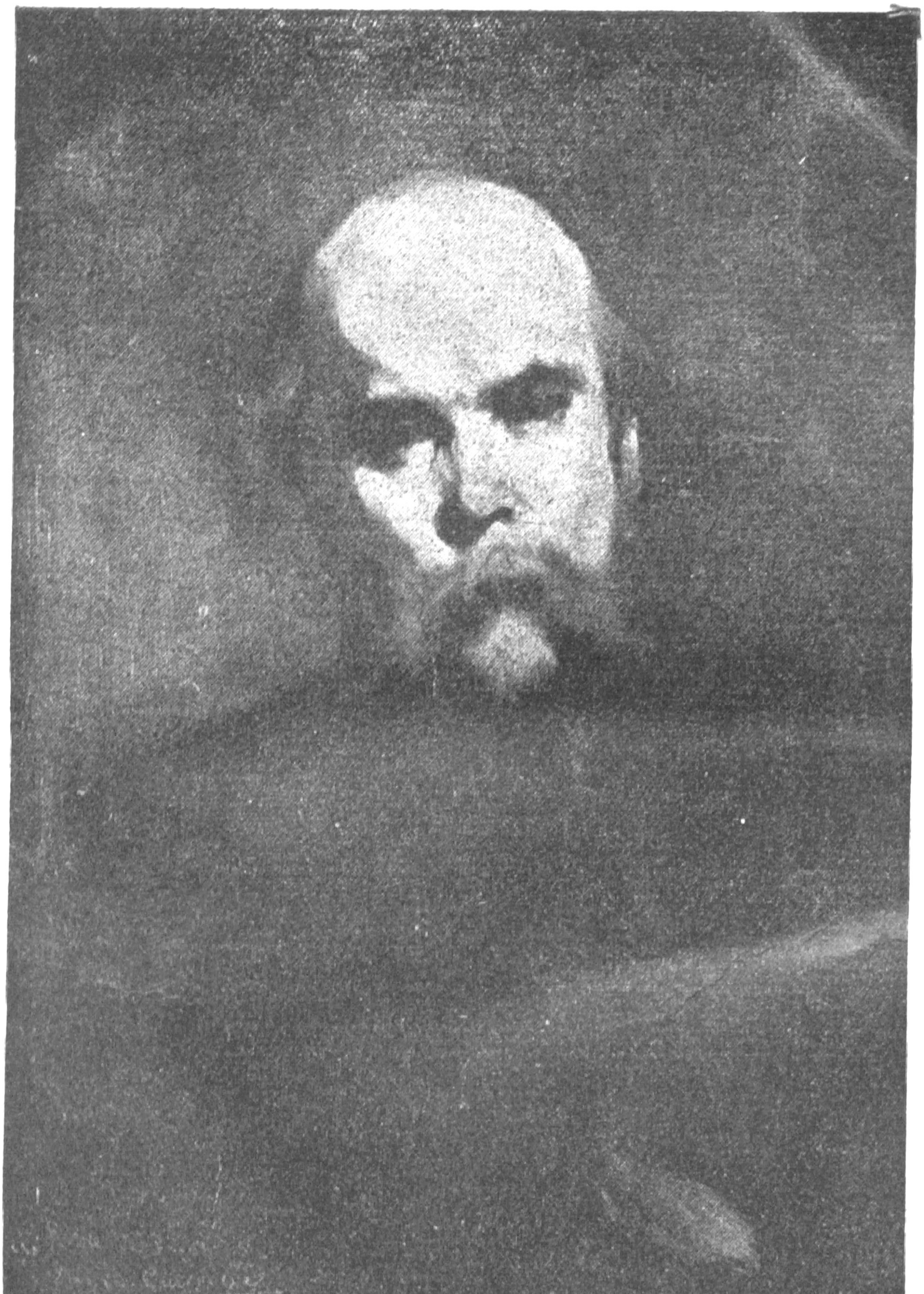
يناير ١٩٤٢

الاهداء

شاء الاستاذ الكبير أنطون الجميّل بك ، وسط ما يشغله من كثير الشؤون ، أن يحيي أولى ثمرات قلمي في عالم النثر ، بكلمة من قلمه الشاعر ، وأدبه الرفيع ، نشرتها « الاهرام » الغراء عن كتاب « أرواح شاردة » غداة ظهوره في محيط الادب .

واني ليغبطني أن أهدي الى الصديق الكريم هذا الكتاب في طبعته الثانية تحية لأدبه وفضله ما

ع . م . ط



پُول ڤيرلين

PAUL VERLAINE

كان فتًى حالماً ، رقيق البدن ، بارز الجبهة ، عميق النظرة ، مرح النفس ؛ قذفت به الحياة إلى معتركها غمراً ، لم تكشف له تجاربه المحدودة عن طبائع الناس ولم يهيئه طبعه الرقيق ومزاجه الحاد ، لمكابدة شظف العيش وضنك الحال ؛ وإن هيأته روحه ليكون حيث هو الآن ، من نباهة الذكر ، وسموّ المنزلة ، وخلود الأثر .

ولو قد عرف « البارناسيّون »[1] ما ناطته السماء بمستقبل هذا الصبي الشاعر ، وهو يختلف إليهم من حين إلى حين ، ولو قد تبيّن جماعة « مالارمى » ماتنطق به مخايل هذا الشاب العابث فى أبهاء الحى اللاتينى ، لحموه أحداث الزمن ، ولمّا تركوه غرضاً للفاقة والتشريد والعذاب ، ولضنّوا بصاحب هذه النفس الشاعرة الموهوبة والعبقرية المبدعة الفذة ، ألّا يجد وهو فى مستهل حياته قوت يومه ، ثم لفزعوا إلى القدر فما صرف أمه عن العناية به صغيراً ، فشبّ مطلق العنان ،

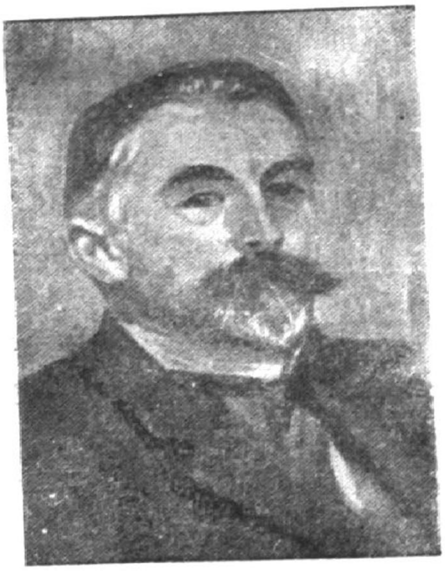
---

(١) البرناسية ، كالإبداعية والواقعية والرمزية من المذاهب التى تفرع عنها الادب الفرنسى وأثرت فى الاداب الحديثة ؛ فالابداعية Romantism تصدر عن العاطفة المطلقة والاحساس الشغوف بالصور والاشكال والالوان وانعكاساتها ؛ والواقعية Realism تعنى بالوصف الصادق والتعبير المجرد سواء أأرضى أم أسخط مع اجتناب المبالغات ؛ والرمزية Symbolism هى هذه الايماءات والظلال التى تعبر عن الانفعالات النفسانية والومضات الروحية بالرموز حينا والموسيقى أحيانا ؛ أما البرناسية Parnassism فهى مذهب العقل الذى ينظم العاطفة ويصفى الاحساس من الاضطراب والصخب ، ويحد من فورته وثورته ، فغايتها الاصالة الفنية والتعبير من أجل الفن ، والسمو به إلى مثل عليا جديدة .

يرتاد المواخير ، ويدمن الخمر ؛ ثم لما غادر زوجه وأمه وولده هائماً بين باريس ولندن وبروكسل ليعود إلى وطنه ضحية اتهام قاسٍ ، ينال من رجولته ، ويلقى على نجمه المتوقد ، سحابة من الزراية والامتهان ؛ ثم لمَّا ارتفعت من حوله صيحات العار ، تلاحقه من مكان إلى مكان ، فغلّقت فى وجهه أبواب الرزق ، وسدّت على ذلك الهارب المسكين منافذ الرجاء والطمأنينة ، فمضى يستنبت الأرض فى الريف البعيد ، فى كثير من اليأس والعناء ، وهو ذلك الروح المرح ، الذى لم يُخلق لغير الشعر والغناء ؛ ثم لمَّا تحالف هذا الشر كله على ذلك الضعيف المكدود ، فاستبدّ به المرض ، فقضى غريباً وحيداً ، منبوذاً إلاّ من امرأة بائسة مثله ، ساهمته حبَّه الأخير وشقاءه الأخير ، فلفظ فى ظل قربها وعطفها نفسه الأخير .

حقاً ! ! لقد كانت حياة ڤيرلين فاجعة محزنة ؛ فمن الحان إلى السجن إلى الماخور إلى الهيام فى الطرقات ، إلى ملاجىء البر .

هذا هو الشاعر الخالد . . الذى كان أرخم صوت غنائى صدح به الشعر الفرنسىّ فى القرن الذى أنجب هيجو ، لامارتين ، جوتيه ، موسيه ، بودلير ، رامبو ، جول لافورج ، مالارمى ، جوزى ماريا دى هيريديا وغيرهم .


ستيفان مالارمى

إن فى حياة هذا المتشرد الكبير ضروباً من العبث ، وألواناً من الألم ، ولكنه العبث الذى تستقيم به حياة الفنان البوهيمى ، والذى يتيح للأدب فى كل جيل فنوناً شتى من الإجادة والإبداع ؛ ولكنه الألم الذى يفرض العذاب على القلوب الشاعرة فينطقها بالنغمات الفريدة الساحرة . ويصل ما بينها وبين السماء ، فتشرب من روعة اللانهاية وصفائها ، وتمنح البشرية الوضيعة المعذبة ، لحظات من السعادة والسمو ؛

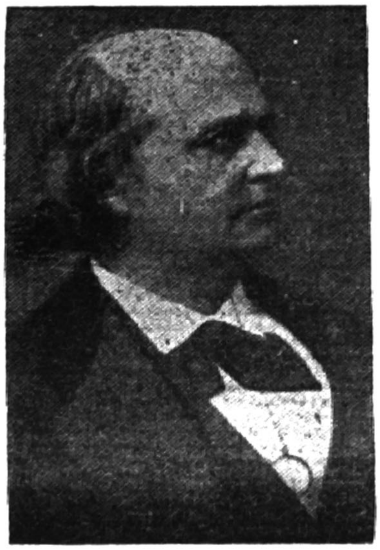
ولد بول ڤيرلين فى مدينة «متز» من ولايات فرنسا الشمالية ، فى الثلاثين من شهر مارس عام ١٨٤٤ ، أى بعد مولد بودلير الشاعر بثـلاثة وعشرين عاماً ، وكان أبوه ضابطاً ممتازاً فى الجيش الفرنسى ، وعند ما بلغ السابعة من عمره ، رحلت بهِ عائلته إلى باريس ، فألحقته بمدرسة خاصة ، ثم بمعهد «ليسى بونابرت» حيث أظهر ڤيرلين على حداثته ، تفوقاً مشهودا فى اللغتين اليونانية واللاتينية وفى علوم البلاغة والأدب ، فمنح جائزتها مع درجة شرف ثم استمر فى دراسته قليلا من الزمن ، حتى ظفر بوظيفة حاسبٍ فى إحدى دوائر باريس المالية .

ولـكن حياة ڤيرلين الشاعر تبدأ عام ١٨٦٦ ؛ فى الثانية والعشرين من عمره أخرج أول مجموعة شعرية عنوانها «قصائد عابسة» « Poèmes Saturniens » وبعد ثلاث سنوات نشر مجموعته الثانية «أعياد مرحة» « Fêtes Galantes » فأصاب ڤيرلين من تينك المجموعتين ، حظًّا كبيراً من الشهرة والتقدير كشاعر غنائى نابغ ، كما أصاب حظاًّ من التعاسة والشقاء ؛ وكانت الأيام قد مهَّدت لهذه المتناقضات ؛ فقبْل نشر ديوانه الأول بعام ، مات والده ، وعاش الشاعر الصغير فى رعاية أمه ، فدللته ، وأعانته على عبث الشباب ونزقه ، بما كانت تمدُّه بهِ من المال ، فانغمس الفتى فى شهواته ، وانطلق يعبُّ من ملذات الحيـاة كيفما اشتهت نفسه الظامئة ، وشبابه المضطرم .

ثم أعانته الأقدار بعد ذلك على الحياة التى بدأ يشغف بها ويستمرئها ، حياة الشرود والهيام ، فصادف جماعة من الشعراء البوهيميين الذين كانوا يجتمعون كل مساء فى مطعم «ريڤولى» بالحى اللاتينى فما لبث أن مال إليهم واندمج فى عشيرتهم ؛ كانوا يجتمعون فيتناولون الأدب والفن بالدراسة والنقد ، ويتجادلون فى شئون الشعر ، وكان لڤيرلين من هذه الجماعة ، حظ كبير من الخير ، فصقلت محاوراتهم طبعه ، وأظهرته على ألوان مختلفة من الجمال والخيال ،

ولكن كان له إلى جانب هذا الخير حظ كبير من الشر ؛ فقد حببت إليه عشرتهم احتساء الخمر أولا ، وإدمانها ثانياً ، وكان ڤيرلين رقيق البدن ، عصبي المزاج ، حاد الطبع ، وكان الخمر سمه القاتل !

وصار ڤيرلين بعد ذلك من المترددين على صالون « لويس كسافير دى ريكارد » فاتصل بالبارناسيين « Parnassians » جماعة « ليكونت دى ليل » ولقيت شاعريته المبدعة ، هوى وتقديراً ، من الشعراء والنقاد النابهين فى الأوساط الأدبية العالية ، الذين تضمهم هذه الجماعة ، أمثال جوزى ماريا ، سوللى برودوم ، فرنسوى كوبيه و كاتول منيدى وغيرهم ؛ ولعل هؤلاء خير ماصادفه الشاعر فى حياته الأدبية ، فقد أثبت اتصاله بهم شخصيته كشاعر مرموق الحاضر ، مرجوّ المستقبل ، كما أصبح فيهم بعد ذلك ظاهر الشخصية نابه الشأن .


ليكونت دى ليل

كان هذا فى الفترة ما بين عام ١٨٦٦ وعام ١٨٦٩ أو ما بين ظهور ديوانيه الأول والثانى .

وفى ربيع عام ١٨٦٩ قابل فتاة تدعى ماتيلد موتِ Mathilde Mautè أخت أحد أصدقائه ، فتحابَّا من النظرة الأولى ، وزاد شغف ڤيرلين بفتاته كما استمرأت ماتيلد مطارحاته الغرامية ، ففكرا فى الزواج ، ولم يكن أمره مستطاعاً فقد كانت ماتيلد فتاة صغيرة ، وكانت حداثة سنها تحول دون الزواج ، وأخيراً ظفرا بهذه السعادة ؛ ولم يكن ثَمَّت من سعادة يحلم بها ڤيرلين بعد ذلك ، فقد كان مُدلَّهاً ، يستغرقه الحب ، وكان يرى فى الزواج رابطة مقدسة ، كما كان يرى فيه منقذاً له من نقائصه ، مطهّراً لكلّ آثامه . ولكن هذا الحلم الجميل لم يتحقق !

فقد بدأت الحرب السبعينية بين فرنسا والمانيا ، وكان البروسيون يطوّقون

باريس ؛ فتطوع ڤيرلين فى جيش المواطنين المدافعين عن مدينتهم ، وهكذا فارق الشاعر زوجه بعد شهور قليلة من زواجهما ، وعاشت الشابة الصغيرة فى بعض غرف شارع « الكردينال ليموان » تنتظر زوجها الشاب .

ووضعت الحرب أوزارها ، وعاد ڤيرلين إلى باريس ، ولكنه كان قد تغير ؛ كان لا يزال على عهده من الحب لزوجته ، ولكنه عاد سيرته الأولى ، مستغرقاً ، فى حمأة نقائصه ؛ عاد ڤيرلين إلى باريس ولكنه فقد وظيفته الأولى ، وكان الاسراف قد أودى بأمه إلى الفاقة والعوز ، فاضطر ڤيرلين أن يغادر باريس ، صحبة أمه وزوجه إلى « شارڤيل » لا ليشاركوا والدىْ « ماتيلد » غرفتهما الوحيدة فحسب ، بل ليعيشوا أيضاً عالة عليهما .

ولم يكن هذا كل ما أعدّته الأقدار لڤيرلين فى « شارڤيل » فقد بدأت أخطر دقائق حياته من الاقتراب ، وكانت النكبة التى لوثت حياة هذا الشاعر المسكين ، فى خطاب تلقاه من شاب يدعى « آرثر رامبو Arthur Rimbaud » ضمنه إعجابه الذى لاحد له بأشعار ڤيرلين كما ضمنه شيئاً من أشعاره . .



رامبو فى طفولته

ووجد ڤيرلين فى هذا الخطاب رجلاً يرفعه إلى مصاف العبقريين ، كما وجد فى هذا الرجل شاعراً مبدعاً ، فى شعره قوةٌ جديدة وصوت جديد وخيال جديد ؛ فاندفع ڤيرلين يدعو صاحبه إلى « شارڤيل » دون روية أو إمعان ، وحل رامبو ضيفاً على هذا الخليط المزدحم ، يشاركهم نومهم ويقظتهم ، ويساهمهم زادهم وشرابهم ؛ وكان رامبو شاباً فى السابعة عشرة من عمره ولكنه كان مخلوقاً غريباً حقاً !! .. كان مديد القامة ، قذر الثياب ، وكان عاطلاً أيضاً ، وكان مخبره أحطّ من مظهره ؛ كان شريراً بكل ما فى

كلمة الشر من المعانى ، وكان رجلا سكيراً ، فظاً ، كثير اللجاج ، محباً للمشاكسة ، فلم تستطع ماتيلد وأمها صبراً على هذا الضيف وسرعان ما تخلصا منه ؛

ولكن رامبو وجد مأوى آخر ، واستطاع أن يتصل بالكثير من الشعراء أصدقاء ڤيرلين ، فسرعان ما أثر فيهم وتسلط عليهم ، ومن ثمّ وقع ڤيرلين روحاً وعقلاً تحت سلطان هذا الساحر . أما ماانتهى إليه أمر هذه العلاقة بين الشاعرين فقد اختلف فى اكتناه أسراره الكتّاب والمؤرخون ، وإن أجمعوا على أنها العلاقة الشاذة التى يتأثّم بها اثنان من جنس واحد ؛ وهو اتهام لم يفرغ النقـــاد من تحقيقه حتى اليوم ؛ أما الذى لا سبيل إلى الشك فيه فهى النتائج المحزنة التى انحسرت عنها مأساة هذه العلاقة ، ولا مندحة من أن نمسّها مسّاً رفيقاً ؛ فقد جعلت حياة ماتيلد مع ڤيرلين أمراً مستحيلاً فدفعته إلى هجرها ، ثم ساقته وصاحبه رامبو إلى انكلترا ، ثم إلى بروكسل ثم أورثته إدمان الخمر ، فبالغ فى نشوته إلى حدٍّ نال من صحته ، وأوهن أعصابه ، وأوقعه فى جنون التخيُّل والتوهُّم "Pasomania" ؛ ثم استمرت المأساة فى عملها فدفعت الشاعرين إلى الخصام الشديد ، ثم رفعت يد ڤيرلين بالنار يطلقها على صاحبه مرات . فاذا صاحبه جريح ، وإذا ڤيرلين رهين سجن « مونز » ثم تخلص المأساة من رامبو ، لتتصل بحياة ڤيرلين وحده فيخرج من السجن بعد عامين ويعود إلى فرنسا . ثم يحصل على وظيفة مدرس بأحد المعاهد ليفقدها بعد زمن قصير ، ثم يضيق به الحال ، فيذهب بأمه الى « إردن » مؤثراً فلاحة الأرض ؛ ولكنه لا يصيب حظاً من النجاح ، فيغادر فرنسا كلها ويعود إلى انكلترا للمرة الثانية . ثم يحن إلى وطنه فيرجع إليه عام ١٨٧٨ ويظفر بمنصب أستاذ فى كلية « رتل » Rethal ومنها إلى باريس ؛ وإذا بالمتشرد الكبير يظهر مرة أخرى فى الحى اللاتينى ، ويتصل بأصدقائه القدماء ، من الشعراء

الرمزيين روّاد هذا الحى ؛ ثم يبسم له الحظ قليلا فينشر مجموعة جديدة من شعره وكتاباً آخر فى تصوير بعض الشخصيات الأدبية ، فيصيب من ورائهما بعض المال . وكثيراً من الشهرة والمجد ، ثم يعبس الحظ له إلى الأبد ، فيتخطف الموت أمّه عام ١٨٨٦ ويقع ڤيرلين تحت وطأة المرض هيكلاً محطماً ولكنهُ رغم هذا لم يقلع عن إدمانه الخمر ؛ ثم تذهب به المأساة الكبرى إلى نهاية الشوط ، فتأبى ماتيلد الصفح عنهُ وترفض لقاءه ، وتستأثر وحدها بطفلهما الوحيد ، وهكذا يقف ڤيرلين حيال العالم وحده ، ثم تعبر به عشر سنوات أخرى وهو يضرب فى هذا التيه الغامر والعذاب المطلق حتى يصادف « أوچينى كرانتس » فيؤلف بينهما البؤس ويصدح بلبل الحبِّ فوق طلل هذا القلب المهدم الحزين ، فينتعش قليلا ولا يكاد يخفق للحياة الجديدة ، حتى تتألب عليه الأمراض فيعجز عن مقاومتها ، فيصرعه الموتُ ، وبذلك تنتهى حياته أو مأساتهُ المفجعة عام ١٨٩٦ .

كان ڤيرلين شاعراً غنائياً محبوباً ، وقد ظهر ميله إلى الشعر أيام دراسته الأولى فاظهر فى قرضه مقدرة ونبوغاً لايتكافىء معهما عمره الصغير ، أما ديوانه الأول « قصائد عابسة » فقد كانت عملا فنياً رائعاً ، وكان كله شعراً غنائياً تضطرد فيه الموسيقى اضطراداً عجيباً ، تجد فى بعضه الاناقة والجمال ، وفى بعضه الآخر العظمة والرقة ؛ ولعلّ أجمل قصائده قصيدته فى الخريف ، أترجمها شعراً وان كانت الترجمة تفقدها أجمل مافيها وهو الموسيقى .

تنهداتُ الرياحِ
رتيبةُ النواحِ
تجرح قلبى بهـا قيثارةُ الخريفِ
وثَمَّ صوتٌ عابرْ

من السنين الغوابر

يهتف بى فأصغى   للهاتف المطيف

ويستفيض خيالى

بالذكريات الخوالى

أنشدها فأبكى   بالمدمع الذريف

وعند ذا تحملنى

وُرَيْقةً من فنن

قد ذبلت وانطلقت   فى العاصف الشفيف

وما كاد ديوانه الثانى « أعياد مرِحة » يظهر فى المكتبات ، حتى أقبل عليه الأدباء ، وكان حظه عظيما من الناقد الكبير « سنت بيف » فبدأ يكتب عن ڤيرلين الشاعر ، كاكتشاف جديد ، وذخيرة نفيسة فى الشعر الفرنسى ، كما كتب عنه الكاتب الكبير « فرنسوى كوبيه » فوصفه بأنه خلق شعراً يمتاز بطابعه الفردى ، ويسترعى أرق اهتزازات العصب الانسانى ، وأن قوافيه وأوزانه تجمع بين الحرية والترسل فى أسلوب كله قوة ، وكله عذوبة ، واستعارات رائعة وموسيقا فريدة .



سنت بيف

والحق أن ديوانه الثانى « أعياد مرِحة » كان له من عنوانه نصيب عظيم ، فكانت قصائده أكثر احتفالا بالبهجة ، وهكذا تكون روح الشاعر ، فغناؤها يترجم دائماً عن شعوره بالحياة ، وتأثره بأفراحها وأتراحها ، فهى فى ديوانه الأول يغشاها الاضطراب ، وهى فى ديوانه الثالث Romances sans Parole الذى نظمه فى السجن ، تتجاوب بأصداء الألم الذى تضطرب به روح الطائر الحبيس

وهى فى ديوانه الثانى مرحة تصدح بالفرح، وتغرد بالأمل الجميل، وكما أنطق البؤس ڤيرلين كذلك أنطقه الحبُّ، ولم يكن غرام ماتيلد عبثاً محضاً، فقد ألهم ڤيرلين أرقَّ أشعاره، وأعذب أغانيه، وكشف عن جوهر روحه الصافية، وإبداع عقله، فمن العيون الضاحكة، ومن الشَّعر الأشقر المتموّج، ومن هذا الصوت الرخيم، إستمد ڤيرلين ألوان خياله المتلألئة، ومرح قوافيه، وروعة أنغامه. ولعلك تحسُّ هذا كلَّه فى هذه القصيدة :—

هذا هو القمر الفضى يملأ الغابة نوراً
وثَمَّ صوتٌ ساحر يهتف تحت كل فرع ومن ذؤابة كل غصن « يامحبوبتى
هذا هو الغدير الرقراق كصفحة المرآة
يسبح فيه خيال الصفصافة السوداء حيث تئنُّ الريح
ألا فلنحلم ياحبيبتى فتلك ساعتنا
فالكون يلفُّه السكون ويهفو به الحنان
كأنما تُسلسل اللانهاية المشرقة ألوانها
ألا إنها الساعة المنتظرة !!

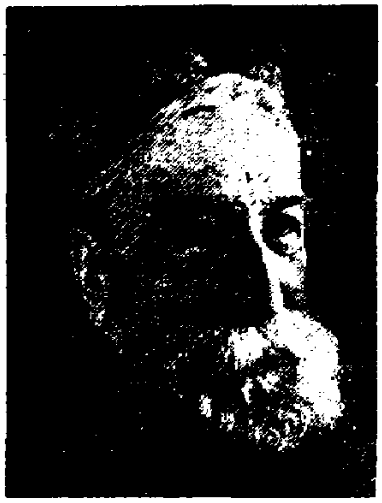
وليست أشعار ڤيرلين كلها بهذه البساطة، نعم إن منها مايعد من الأغانى الشعبية، ولكنهُ أيضاً كان شاعراً رمزياً عميقاً، ومن الواضح أن ڤيرلين تأثر ببودلير إلى حد ما، فقد أسلفنا القول أن بودلير سبقهُ بثلاثة وعشرين عاماً، ولعلَّ الجانب الرمزى فى بودلير هو الذى استهوى ڤيرلين، ولعله الجانب الشهوانى، بيد أن الفرق بين الرجلين كان بعيداً جداً، فهما يختلفان فى الطبع وفى النظرة إلى المرأة، فقد كان لڤيرلين طبع لين، ونفس رقيقة رغم مزاجه الحاد، ثم إنه كان يحب المرأة حباً أقرب إلى الروحانية منه إلى الشهوة المجردة ولم تفسد المرأة حياته ولكنه الذى أفسد حياتها، ولكن بودلير كان شهوانياً إلى حد بعيد، وكان

ذا فلسفة خاصة فقد رمى القدر فى أحضانه بنسوة يستمرئن متعة الجسد ، فراح ينشد من وراء فلسفته « حواء » أخرى لاتتصل بطريدة الجنة ، لقد كان بودلير ضحية المرأة أما ڤيرلين فكان ضحية الخمر !!

إن أهميـــة شعر ڤيرلين فى موسيقاه ، تلك التى وصفها النقاد بالموسيق الموزارية نسبة لموزار الموسيقى الألمانى العظيم ، فڤيرلين من هذه الناحية من طائفة ڤيلون ، وهاينى ، وإدجار إلن پو ، ولكنه زاد عليهم تلك اللغة البارعة التى استحدثها فى شعره ، فهى لغة لها أهمية موسيقاه . لقد سكب فيها كل ما اضطرم به قلبه من الألم والحماسة والحب والقوة ، وكل ما اضطرب بين جوانحه من الأحلام والكآبة والمرح ، ويجدر بى القول قبل أن أختم هذه الدراسة ، إن ڤيرلين لم يعش خامل الذكر فى جيله ، ولا منكور الأثر ، فقد رأى بعينه تألق نجمه فى عالم الأدب ، وشهد أشعاره مترجمة إلى غير لغة واحدة ، وسمع أغاريده تملأ أفواه الشعب الفرنسى ، كما سمع الكثير من إعجاب أعظم كتّاب جيله شأناً وأخطرهم رأياً ، وكان الاعتراف بمكانته من المدرسة الرمزية الحديثة أمراً مسلّماً به ، ولكن أملاً واحداً من آماله الكثيرة الضائعة ، لم يتحقق ، فأضاف إلى عذابه الروحى وشقائه المادى ، شقاءً آخر وعذاباً جديداً ظلّ يحزُّ فى قلبه حتى وقف عن ضرباته ؛ فقد دفعه بؤسه ، وعار علاقته برامبو ، أن يخلص منهما ويمحوهما بترشيح نفسه « للأكاديمى فرنسيز » ويشير بعض النقاد إلى أسباب أخرى ترجع إلى غروره فى أيامه الأخيرة وإعتداده بنفسه ، ولكن من المحقق أنه كان يطمح إلى الظفر بقوة الاحترام وإلى مكافأة الاكاديمية الضئيلة لينعم بالراحة بين دنان الخمر ، وكان يرى فى تحقيق هذا الأمل مجداً خطيراً يتوّج حياته بالخلود . وقد وصف النقاد ذلك بأنه « كوميديا خطيرة » كما عابوا عليـــه طموحه لذلك « القبر المزخرف

البغيض الذى يئد القريحة ويطفىء النبوغ » . ولكن الزمن حقق بعد مماته ما عجز عنه فى حياته ، فرفعه إلى مصاف العبقريين وكتب اسمه فى ثبت الخالدين .

وحسبنا أن نختم هذا الفصل بهذه الآية لأناتول فرانس تتوج بها سيرة ڤيرلين قال :


أناتول فرانس

إنه شيخ متعب من الشرود والهيام فى الطرقات مدى ثلاثين عاما ؛ إن منظره يكلم النفس ويصدم النظر ؛ إنه يجمع بين الشراسة والوداعة ؛ سقراطى بالفطرة ، أو خير من ذلك ؛ حيوان غابة ، مخلوق خرافى ، نصفه حيوان ونصفه إنسان ، نصفه وحش ضار ونصفه إله ؛ هائل كقوة طبيعية غير خاضعة لشريعة ما ، فهو شبيه ڤيون ونده وضريبه ؛

إنهما ولدان شريران !!

رزقا التعبير وأوتيا البيان ،

فباحا بأجمل مافى الدنيا من الأشياء والأحلام !!.

لم يبدع مثل هذا التأليف الموسيقى فى الشعر الفرنسى أحد قبل فرنسوا فيون François Villon . ولد فى باريس عام ١٤٣٢ من أبوين فقيرين ومات عنه والده وهو طفل فاحتضنه الكاهن جليوم دى فيون وتعهده بالتربية ثم منحه اسمه فأصبح فرنسوا فيون بدلا من فرنسوا مونتكوربيه Montcorbier .

وقد طوح به بؤسه وتمرده إلى مصاحبة جماعة من الافاقين والصعاليك الذين يصطنعون اللصوصية فى باريس فأصبح واحداً منهم وحكم عليه بالموت ثم النفى من باريس وظل حياته طريداً شارداً بين غرامه وبؤسه حتى عام ١٤٦٣ فانقطعت أخباره سوى بعض أحاديث ترددت عن وجوده فى تورينو بإيطاليا ، ومات دون أن يعرف أين ومتى لقى حمامه . ومن أشهر قصائده الوصية الكبرى والوصية الصغرى .

شَــــــارْل بُوْدْلــــــير

CHARLES BAUDELAIRE

لم يظفر الشعر الفرنسى فى القرن التاسع عشر بمثل هذه الألوان الفريدة الرائعة . التى استحدثها بودلير ، وڤيرلين ، ورامبو ؛

فمن الحق أن رامبو كان قوة جديدة . وصوتاً جديداً . وخيالاً جديداً .

ومن الحق أن ڤيرلين استحدث لغة شعرية لا عهد بها للأدب الفرنسى ، وموسيقى غريبة النغم ، كلها سحر وكلها روعة ؛

ولكن من الحق أيضاً أن هذين الشاعرين يتلاقيان فى كثير أو قليل من فنهما الإبداعى ، مع شعراء آخرين ، مثل ڤيُّون ، هاينى ، سونبرن ، إدجار ألن پو ، توماس هود ، شــلى ؛ أما بودلير ، فلا نظير لصــوره الشعرية بين شعراء عصره ، ولا مشبه لفنه بين فنونهم إطلاقاً ؛

إن قراءة بودلير تمنحك لحظات سعيدة بين التسامى والطموح إلى المثل الأعلى ، وفى المنثور والمنظوم من شعره موسيقى طلقة متوفزة كانتباهات الضمـير ، رفّافةٌ رفيفَ التأملات الخاطفة على هوامش الصور العابرة ، وهى بعد ، ذات إيقاع نَفَّاذ يساير بغير ما وزن أوقافية ، خطرات النفس الغنائية .

فليس من توافق المذاهب الشعرية أو المزاج الفنى ، أن نقرن بودلير بڤرلين ورامبو فى كلمتنا هذه . فإن الخلاف شديد بين الأول وصاحبيه ، إلا من حيث ما أفادوا به الأدب الفرنسى من الطرافة والابداع ، والخصب



والثراء ونفاذ النظرة وما شغلوا به النقاد من التوفر على نقدهم ودراستهم والذود عنهم حتى انبرى إمام الإبداعيين فيكتور هيجو مدافعاً عن بودلير وعن حريته كفنان له رأيه فيما يبدع من صور الخيال والفكر سواء أكانت نقية وادعة أم شائنة مروِّعة.



فيكتور هيجو

وإذا لم يصب بودلير حظه من التقدير والحفاوة بأدبه فى مستهل حياته الأدبية، فلا يرجع ذلك إلى فنه ومميزات أدبه، وهو الذى برهن بما أنشأه من مقالات فى الفنون الجميلة عام ١٨٥٥ على أنه أستاذ محقق فى الفن والجمال، ولكنه يرجع إلى عوامل كثيرة، أخصها ما أحاط بما كان ينشره من شعر فى مجلة العالمين، ثم تلك الضجة التى أعقبت نشر ديوانه «أزهار الشر Les Fleurs du mal» وما تردد من أصدائها فى الأوساط الثقافية فاعتبر رجلا ساقطاً، مخرباً، زنديقاً.

ويقول الأستاذ «بورْ Bower» فى مقدمة عنه رفعها إلى الأكاديميه فرنسيز إن التنويه ببودلير، كان مقروناً بتدهور الفن، وأن هذه الفكرة قد حركت زمناً طويلا النقاد فى الجزر البريطانية، ولازمت نشاطهم فى غير مواربة ولم يكن ذلك بدافع من حكمة الوطنية، وإنما يرجع إلى اضطراب الفكرة المطوّقة دائماً بعالم الفن، ولذلك فقد ظل فنه غريباً عن الأدب الأوروبى حتى ذلك الوقت الذى عنى فيه أمثال أرثر سيمونس وجورج مور وغيرهما بنقل آثاره وآثار ڤيرلين ورامبو إلى الإنجليزية فأثارت الانتباه من حيث التفكير واللغة والموسيقى، كما كانت غرابة أطواره وشذوذه وحياة التشرد Vagabondage، التى انفرد بها ڤيرلين، من عوامل الاغراء والفتنة لأحاديث المجلات والأندية الأدبية فى انجلترا المتفتحة للجديد.

ومن غير شك فإن بودلير لم يكن مخرباً ولا ساقطاً بالمعنى الذى نفهمه عن حقيقة السقوط والتدهور ، فقد يكون شهوانيـــاً متطرفاً خلع عذاره وانهمك فى عبادة جديدة قوامها التحليل النفسى ، مقيما حياته على الميراث المحزن الذى آل إليه من المرض، أو متأثراً بالبيئة الدنسة التى ظل يضطرب فيها منذ يفاعته ؛ لحياته من هذه الناحية مادة غنية تجتمع فيها دراسات ممتعة لعلم النفس « Psychology » وعلم وظائف الأعضاء « Physiology » وللكاتب الأخلاقى « Moralist » .

ونستطيع أن نلمس آثار ذلك كلِّه فى الصور الشعرية الشاذة التى تمثل الألم والشهوة وتجسد الشر وتُنطق الرعب والموت وتهتاج الحس، ثم هـذه المشاهد البشعة التى صور فيها الجثث المتحللة ، وما تفرضه الحيـاة على جسم الكائن الحى ، ثم هذا الاطناب فى الجرأة التى تناول بها موضوعاته الشعرية ، ولكن عنف عبارته الذى كان من مصادر شقائه فى حياته ، وهذه الألفاظ النارية التى لم يكن يملك التعبير بغيرها عن اضطراب روحه وثورة نفسه ، قد دفعت به إلى حيث لا عذر له ، فانظره فى موقف من صبية حسناء يغمر ضوء القمر جسمها ، فهو لا يتكلم عن الحب بمعناه ، ولا عن الجمال بمعناه ، وإنما يتخذ من هذا الموقف معرضاً لمنطقه الخاص ، حين يتكلم عن المرأة ، ويعرض للمرأة ، ويرى النقاد أن كل ما أسبغه على القمر وضوئه من أوصاف ينصب على المرأة ويصور طبائعها، فهى فاتنة ومفسدة كضوئه المتقلب ؛ وهى فى تحايلها وإغرائها ودهاء ضعفها ناعمة رخية ، تنفذ إلى عقول الرجال وقلوبهم لتنفث سمومها كهذا الضوء أيضاً ، إسمعه وهو يقول

« ومن ثم شعشع السندس ملء عينيكِ ، وشاع الشحوب الرائع فى أديم خديكِ ، أجل فعند ما تطلّعتِ إليه انداحت حدقتاك بصورة غريبة ، فطوّق نحرك بذراعيه المترفقتين فى حنان بالغٍ أورثك الحنين إلى الدموع .

وما هى إلا فورة من نشـوة فياضة حتى غمر مخـدعك بجو مشعٍّ من

ضوئه النعاف ، ذلك الضوء الخالد الذى هتف من سُبُحات تفكيره قائلا :
« ألا فلترتسم عليْكِ قبلتى إلى الأبد .

« وليكن لكِ مثل فتنتى وجمالى ، ولتحبىّ كل ما أحب وكل ما يحبنى ، من ماء وسحاب وليل وسكون ، من البحر الزبرجدى المترامى ، من الماء المنطلق السيال ، المتعدد الأوضاع والأشكال ؛ من المكان الذى لن تطرقيه ، من العاشق الذى لن تعرفيه ؛ من الزهور التى لم تُنْبتها الطبيعة ، ومن العطور الفوّاحة المسكرة . ومن القطط المستلقية فى تراخٍ ، ذات الأصوات العذبة الحاكية لتنهدات النساء .

« أجل ولتكونى فتنةَ عشاق ، وموضعَ الإجلال من سُمّارى وندمائى ، ولتستوى ملكةً على عرش من أفئدة الرجال ذوى العيون الخضر ، الذين تحويهم أحضانى كل ليلة . هؤلاء الذين يفتنهم البحر ، البحر المتنائى الأطراف ذو اللجة المصطخبة الخضراء ، والمكان الذى لن يغشوه ، والمرأة التى لن يهتدوا إليها ، وأزهار الشر المتوقدة كمجامر كاهن مجهول ، والعطور المثيرة المستبدة بالغرائز ، والوحوش الضارية التى ترمز شهواتها المشبوبة إلى حماقة هؤلاء المساكين .

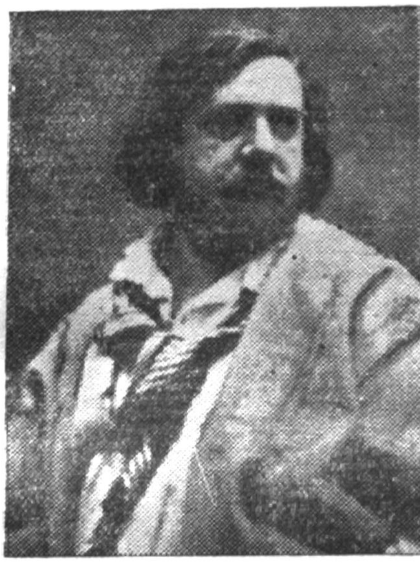
« والآن . . . أيتها الصبية اللعينة العزيزة المشوبة ، ذلك ما يدفعنى لأن أجثوَ على قدميكِ متلمساً فيك صورة الآلهة المروعة ، ربّة الأرباب القاضية ، ظئرَ السموم لكل صرعى القمر من بنى البشر . » . . . . .

وقد انفرد بودلير من ـ غير شك ـ بصور كلها رعب وفزع ، وأسلوب عنيف ، وتعبيرات توصف بالقبح أحياناً ، ولكن الرجل كان صادقاً ، بل إن معجزته هى تلك الصور والأساليب الشاذة العنيفة ؛ وحتى فى التوافه التى أقامها من ذات كلماته ، يبدو لنا الفن أعظم ما يكون طرافة وإبداعاً ، وأدق وأصدق لا من حيث التعبير فقط ، بل من حيث الفكرة أو الحس الذى نقل عنه أو تأثر به .

وكان هذا الشذوذ الذى تفرّد به فى زمانه يتمثّل فى إلهة جمال سوداء

« Black Venus » ، أحبها وآثرها على سميّتها البيضاء . امرأة ذات جسد معتل سقيم ملأ البَقَعُ أو الكلَف أديمه يتخلّع فى ثوب مهلهل خَلِق ؛ ولقد تقرّب منها بودلير تَقرُّب العابد ، وكان يرى فتنة ونعمة ساعة يوسد رأسه المثقل بخيالات الأفيون بين نهديها الطوديّين ، مواريًا وجهه فى حلكتهما عن آفاق النور !.

ومن هذا الجسد الحالك ، ومن أزهار الشر المتوقدة ، استمد بودلير هذه الأفكار القاتمة المضطربة ، وصاغ هذه الأشعار المثالية التى وصفها «جوتييه» بأنها تلمع كالرخام الأسود ؛



تيوفيل جوتييه

وإلى نشأة بودلير ترتدّ هذه الميول الشاذة ؛ فقد كان على شيء من الثراء الملحوظ الذى يتيح للشاعر أن يكرس أوقاته للشعر والفن ، ولكن ذلك طوّح به إلى عالم من الرغبات المجهولة التى تنطلق أحلامها وترتسم أطيافها فى دخان ذلك النبات الشرقى ، وعطر المناطق الحارة فى جزائر المحيط الهندى ، حيث ينمو ذلك النبات ، ويضوع طيبه ، وتسطع المجامر ببخوره الفوّاح ونكهته المخدرة ؛ وكانت رحلة بودلير إلى تلك الجزائر فى مطلع شاعريته وفجر صباه الأول ، فعاد منها وهو القائل : « إن روحى تسبح فى دخان تلك العطور كما تسبح أرواح الرجال فى أنغام الموسيقى » .

ويقول بعض الرواة إنه تمنى لو ينقع جسده فى عصير هذا النبات وعطره المسكر !.

ومن هذه العوالم الغريبة المحوطة بالأسرار جاء بودلير بفنه الغريب الذى طغى على فنون أخرى من الأدب الفرنسى ؛ فقد ولد بودلير فى باريس عام ١٨٢١ وتوفى عام ١٨٦٧ ، وفى عام ١٨٤٠ كان هناك رعيل وثّاب من العباقرة فى طليعته هيجو وسنت بيف وجوتييه وجيلٌ من الشعراء الأفذاذ الذين أثّرت مذاهبهم الشعرية فى

اتجاهات الأدب الأوروبى ، وكان هذا الجيل يتمثل فى لامرتين ، موسيه ، ڤينى ' ففى ذلك الوقت الذى كانت تلمع فيه أسماء هؤلاء الأعلام ، وتخطف بلمعانها الأنظار ، كان بودلير صبياً فى التاسعة عشرة من عمره يقرض الشعر ، وكان ليكونت دى ليل زعيم البارناسيين فى العشرين من عمره ، ولم يكن مالارمى معلم الرمزية قد ولد بعد ؛ وكان الجيل يصغى إلى هذه الأصوات العذبة الشجية المرتلة كأناشيد السماء فى تأملات لامرتين وفى قصائده :



ألفونس دى لامرتين

الخريف ، ونبع الغابة ، والبحيرة ، التى ترجمناها شعراً فى ديوان الملاح التائه ، وكان الجيل مأخوذاً بهذه الروح الشادية الحائرة الوالهة التى تفيض من ليالى موسيه ومن قصائده : فى التذكار ، وڤينسيا وغيرها ؛ وكانت قصائد ألفرد دى ڤينى فى سيمثا Symètha ، وباريس ، وبيت الراعى التى ترجمناها فى غير هذا المكان ، قد رفعت إلى عالم الشعر مثاليات من الرمزية الرقيقة والمعانى الدقيقة والأخيلة الفاتنة والموسيقى العالية .



ألفرد دى موسيه

فهذا الجيل الذى تأثر وأعجب وفتن بهذه الصور المشرقة السمحة الوادعة هو الذى عاد فأعجب بالصور البودليرية التى تشبُّ بأوار الجسد ، وتفوح بأزهار الشر ، وتلمع كالرخام الأسود !

وهذا سر بودلير وفنه الذى يقف به وحده فى تاريخ الشعر الحديث .

فى مدى سنتين من عام ١٨٥٥ كان اسمه حديث الخاصة والعامة وكانت محاكمته على بعض قصائد ديوانه « أزهار الشر » قد مهدت لهذه الشهرة ؛

لقد كان لدى بودلير وَرَعٌ الإنسانى ورقّة الخيّر. ولكنه أراد تحويل الطبيعة التى لاتتحول. فلم يجد ثمت من محبة للكمال البشرى أو النبل الفطرى.

وهنا يقول أرثر : « وهناك أزمنة فى التاريخ ، عند مايخبو لهب الصباح المضىء. وتخمد وقدة الظهيرة القائظة ، فإن المأساة لا تذهب بعيدة عنا ، ولا تمضى عاثثة فى الأرض . وحينما ينطلق مرتفعاً كرم الروح الأصيل ، وترتد عيون الرجال فى أغوار النفوس ، وفى ظلال الأشباح الغامضة ، وفى الندامة والسخرية ، والتشاؤم والألم ، فعند هذه قد يصل الفن إلى أمثل صوره ، وقد لا يكون من ندحة عن اكتساح النمط الكلاسيكى بعنف ، والسمو إلى صناعة رفيعة ، وقالب متجاوب بالأحاسيس ، ليكون مع بعض إيضاح بسيط تعبيراً صادقاً متماثلا بالأمانة والحماسة ».

ولكن بودلير وضع نفسه بيده فى موقف الاتهام . وليس من رحمة ولا شفقة . ولم تكن هزة الاتهام لتنفذ من سياج شخصيته ، المتحركة دائماً فى رحاب حياته ، وإن تركت حياته بعد ذلك حلقات غير متصلة ، وكانت قسوة محاكمته ، وقد بلغت أقصاها ، واحدة من أسباب عزلته الأبدية .

فالذين قرأوا لبودلير ، ولم يقفوا على تلك العوامل التى اكتنفت طريق حياته لا بد وأن يجرفهم تيار اتهامه القاسى .

وأرى من العبث الدفاع عن بودلير كما أن من السخرية القول انه لم يكن واقعاً فى الخطيئة أو متصلا بها اتصال هؤلاء الذين لا تشعرهم الطبيعة بفضيلة الإيمان ، فقد قضى حياته مخلصاً لمناسك شهواته ، وفى ذلك يقول أرثر سيمونس : « إن فى شعر بودلير إحاطة واسعه عميقة لتمرد الشعور واهتياج الحس

وضلال الميل الجنسي ، فيها شيء عجيب يفخّم من صوت الرذيلة المكتنفة بالرعب وفيها شيء عجيب آخر عن حماسته في عبادة شهواته ! »

« لقد عاش وحيداً ومات وحيداً ، يحوطه الغموض . معترفاً بخطاياه التي لم يقل عنها كل الحقيقة ، متفانياً في شهواته ، وفي الماخور ، منسكه الآثيم . »

ويقول بعض النقاد إن بودلير كان ضحيـة المرأة ، ويقول آخرون إنه كان ضحية الأفيون والحشيش ، ولـكن الذي لامراء فيه ان هذا الشاعر المسكين كان يحب المرأة ولـكنها لم تـكن تحبـه ، وإنه كان ينشد الحظوة عند النساء ولـكنه كان سيء الحظ لديهن ، وهذا مادفع به إلى تحدّيهن بالشر والـكنود حتى أصبح يرى في الشيطان المثل الأعلا للجمال ! بل ان هذا مادفع به إلى هذه المواخير التي تنضح بشهوات الأجساد البشرية وإلى هذه الأوكار المظللة التي يتهالك فيها المتعبون الذين يسترقون أنفاسهم من عطر هذا النبات الشرقي !

ولقد كان الرجل ألصق بالحيـاة ، وأعظم اجتواء بنارها ، وأبصر عيناً بدنسها ، فلا غرو ، وقد آثر الصدق والأمانة ، إن عبّر لنا عن شعوره بالواقع وإن أفرط في ذلك كنتيجة لتأثره السريع ، ولـكن بودلير الذي يبدو إباحياً مسرفاً في إباحيته ، لا يكاد ينصرف إلى نفسه ، حتى يذكر الموت ، ونهاية الإنسان المحزنة ، فيصف لك دموع الميت حينما تطحن الأرض قلبه وتعبث برفاته أقدام العابرين ، وهو لاينسى الديدان وهي تنهش أديم الجسد البشرى ، فيحس لها وخزاً كوخزات ضمير يؤنب صاحبـه ، فانظر إلى مايقول بودلير في قصيدة عنوانها « ندامة بعد الموت » :

« عند ماترقد ياطيف جمالي القاتم ، تحت تمثال من الرخام الأسـود ، في كهف مخدعك الرطب ، تحت قبو ذلك المأوى ، وعند مايعصر الحجر الـكبير بثقله المروّع جوانب صدرك ، هنالك في خفة حالمة بهجة سيكف ذلك القلب

عن ضرباته ورغائبه ، وستقف هذه الأقدام المتقحمة المغامرة عن عدوها .

وهنا ـ سيهمس هذا القلب أو القبر ـ الذى ساهمنى هواجسى وأنا مستغرق فى شرودى الأزلى طيلة تلك الليالى :

« لمن وقع هذه الخطى !؟ » « من أنت أيتها الأقدام الفاجرة ؟ ؟ أنت التى لم تعرفى بعد ماهى دموع الموتى ! !

وكوخزات تأنيب الضمير ستمضى الديدان فى التهام جسدك ...... »

وهل هناك شىء أروع من دموع الموتى !؟ وهل هناك من ألوان الألم ما هو أشد وأقسى من وخزات الضمير ! ؟ إن فى أمثال هـــذه الخواطر ماينفى عن بودلير صفـة الإيمان بالشر ، فهو لم يـكن إلا مدفوعاً بعوامل الحياة ، وتحت عبء آلامه إلى تصوير هذه الفظائع : وهذا مايتفق ورجل يتألم للموتى ، لا لأن أقداماً فاجرة تطأ رفاتهم ، كما يقول المعرى فيلسوف شـعراء العرب .

خفف الوطء ما أظن أديم الأ رض إلا من هـــذه الأجساد

ولـكن لأن ذرات أجسادهم تبكى بدموع قلوبهم .....

وإذن فلا موضع لهذا الاعتبار ، فمهما كان تمرد بودلير مستمداً من فلسفة عقلية غير سليمة ، ومهما كان شذوذه مستمداً من ذات حياته ، فلا يمكننا إلا التسليم بأنه رفع إلى الأدب أسمى صور الخيال والفكر وأنه رفعها باقتناع لأنها فى جوهرها تثبت شجاعته وإخلاصه الرفيع لفنِّه . فلم ينحط إلى التجارب الفجّة ، ولم يسفّ الى اللافنية العاملة باسم التجديد .

وأخيراً فان بودلير قد استطاع أن يطبع بطابع لايمحى كل شىء بصفاء مشعشع بالنور ، وبساطة تامة . وتخلص رشيق ، فى عبارات كلها صدق وكلها جمال ، غير مقيد بتلك المرطقة الشلاء ، ففـكرة الفن عند بودلير ، هى فـكرة التحايل والمهارة ..

وعندى أن «ألكوك» قد أحاط بذلك كله حين يقول «وهكذا الدنيا التى خلقها بودلير ، دنيا حالمة بالجمال ، وروح العزاء المرفّه عن العاطفة ما تراوح بها طغيانها بين الحيرة والضيق ... إن تفوّق بودلير فى الصور الشعرية قد أغناه عن تلمس شواهد حية على مذهبه العلمى ، وعما يدخل فى وحدة الفن من الصورة والصوت واللون والرائحة ، فمقاييسه عطرية الشذى ، فطرية اللون ، وإيقاعه الموسيقى يترّجم دائماً عن أصداء مزاجه الشعرى ، أما أسلوبه فقد تحوّل حتى لـيُرى واضحاً ، بسيطاً ، رائعاً».

لقد كان بودلير فناناً صادقاً ، طموحاً ، محباً للجمال . وعلى العكس مما يرى الكثيرون فانه باندفاعه المحزن فى تلويث الجمال الأرضى ، وردّه كل أنثى امرأةً عاهرةً ، قد أفشى عاطفته المكرسة لعبادة الجمال المطلق .

ولكنه غامر وكابد كثيراً فى نشدان حرية الفكر ، من حيث هى حرية الفن ، وليس لنا إلا أن نتمثل قوله :

« وسأظل دائماً وربما إلى الأبد - كذئب وقع فى كمين - أثب إلى قمة المثل الأعلى ...... »

في الأدب الإنجليزي الحديث

من رسائل الكاتبة "ربيكا وست"

الكاتبة ربيكا وست Redeeca West من أشهر الأديبات في هذا العصر ، وقد كتبت في كبريات المجلات والصحف الانجليزية والامريكية في شئون السياسة والادب ، ومن مؤلفاتها : هنري جيمس ، عودة الجندي ، سباع وخراف ، والصوت الاجش وسانت أوجستين

ملك ناصية الأدب الإنجليزي قبل الحرب العالمية الماضية كتّاب أعلام لم يبق منهم بيننا اليوم غير رجلين هما برنارد شو وهربرت جورج ويلز .

وإذا كان أولهما قد ناهز الرابعة والثمانين من عمره ، ولم يعد ينفحنا كعادته بقصصه الموسوم بالتقدير الفائق ، فإنه ما يزال يمتعنا بأجلّ مواهبه المستمدة من طبيعته البالغة التأثير ، ومرحه الساخر الذي أحلّه منزلة شعبية مرموقة يتناهى عندها الطموح ، وإنا لنلمس في أطواء نفسه شعور الأخاء الذي يبتهج به القرويون ، وأرق الميول الإنسانية التي يحتفل بها المزارعون وهم يروون الشعر ويتحدثون عن الشعراء .

فسائقو السيارات في لندن ، وبائعو الورد ، يعرفون هذا الشيخ الأديب بلحيته البيضاء ، وقامته المديدة ، وسمته العجيب ، وهو يذرع الشوارع والطرقات بخطاه الواسعة ؛ وهذه الصحف والمجلات تتسابق إلى التقاط عبارة من آخر دعاباته وتتنافس في نقل إحدى نوادره وفكاهاته ، ومن عجب أن يغلوَ هذا الشيخ المسنّ في تهكمه حتى ليتدفق على الناشئة والأيفاع بالروح الساخر الذي تعودوا هم أن يلذعوا به من يكبرونهم من الكهول والشيوخ .



وبهذا استطاع « شو » أن يبرز من الإعجاب به ، وحدة من حياتنا الشعبية قلما يستطاع تحقيقها فى جماهير مختلفى الأمزجة والأطوار كالذين تزخر بهم كبريات المدن .

أما « ويلز » فمع أنه تجاوز الثالثة والسبعين من عمره إلا أنه لا يزال مرموق الأثر ، ملحوظاً بالاعتبار والتقدير . وفى مثل هذه السن نواجه رجلا رصيناً راسخاً ، محباً للعراك ، حاد الطبع ، خصباً ، متدفق الحيوية ، كأنما هو فى منتصف العمر الذى بلغه اليوم ، وهو فوق ذلك دؤوب لا يكل ولا يمل ، كأنه ڤولتير إنجليزى ، مع بعض متناقضات لطيفة تحببه إلينا وتجعله أثيراً بإعجابنا .


هربرت جورج ويلز

ومع أن ثورته هذه لا خطة واضحة لها ، ولا شرح لمذهبها ، إلا أنه كمصلح إجتماعى ، لا يتردد فى رفع عقيرته بالدعوة إلى اضطراح القديم وتخلصنا من عيوب التشبث به ، والمنافحة عنه .

وهو يستحثنا فى الوقت نفسه إلى تنظيم مستقبلنا على ضوء العلم الهادىء الواضح ، ولكن حين نختلف فى الرأى معه ، فإنه يندفع فى المعترك بروح سام مشرب بالفن اندفاعاً يناقض الروح العلمى الذى يدعونا إلى اتباعه .

ولم يكن هناك خلال الحرب الماضية من طراز ذينك العاملين اللذين أسلفنا القول عنهما غير رجل واحد هو « وليم سومرست موم William Somerest Maugh » !

فنحن هنا إزاء رجل آخر يرجع جلاء قريحته وطبعه المصقول إلى العمل الذى أحبه وآثره ، وإلى المنطق الذى استمده من طوارىء حياته ، كما يرجع

فى ذلك أيضاً إلى عائلة إنجليزية امتدت أصولها منذ أجيال بعيدة إلى أرض فرنسية ، حيث كان قد أرسل به صغيراً إليها عقب وفاة أمه ، ليكون فى كنف أقارب قضى سوء الطالع أن يكونوا غير متعاطفين ، ولكنه باستخفاف صبيٍّ ذى شعور مرهف ، مضطرم الحنين إلى وطنه ، لم يدخر جهداً فى إدخال السرور إلى منزل يهتم به جماعة من الغرباء النازحين فى أرض أجنبية ، ومنذ ذلك الحين شبّ على غرار أصيل من أرومته ، فجعل قوام أعماله الأدبية النظرَ فى حياة الإنجليز الخاصة ، وشحَذَ من نظرته فى الحياة عمله كطبيب ، وقد أورثه الدم الإنجليزى المتدفق فى عروقه حب الأسفار وجوب البحار ، ولم يكن يسأم الانفراد بنفسه ، بل إن ذلك قد رزقه إمعان الفكر فى الحياة .

وفى كتابه « قصارى القول » الذى نطالع فيه تاريخ حياته ، نرى كيف مضى مطوّفاً بأنحاء الامبراطورية القاصية وكيف أنه استلهم هذه الحياة ما تفرد به من عقل مُحلِّل ، وجأش رابط ، وخلق ركين ، وقد يبدو عجيباً إندماج مثل هذا الرجل فى بيئات الحكام ، والمستعمرين ، وأوساط الجنود والملاحين ، الذين التقى بهم فى رحلاته ، واتصل بهم خلال عمله . ولكنّ ذلك ما آثره من قبله الشاعر العظيم رديارد كبلنج Rudyard Kipling وعظّمه بحرارة ونال منه رضى لا يحتمل تأويلا ، ولقد كتب كبلنج عن أولئك الرجال كما عرفهم ، وصورهم بالحالة التى رآهم عليها ، أما « مُوم » فقد كتب عنهم بطريقته التحليلية نافذاً إلى حياتهم من خلال علومه ومعارفه ، فالغريب إذن هو أن الشعب الذى قرأ لكبلنج ما كتبه عن هؤلاء الرجا وأعجب به واستساغه ، هو نفس الشعب الذى أقبل على قراءة ما كتبه مُوم عنهم وأعجب به أيضاً ، وهذه علامة التحوّل فى الوضع دون أن يرجع

ذلك إلى تفاوت فى الخلق ، أو فتور فى العزيمة والاقدام .

ولكن « موم » استطاع أن يخدم الإمبراطورية ، وستبقى الإمبراطورية التى أحلها اهتمامه ، وحباها أعظم التقدير والتبجيل .

أجل أننا نتحول ؛ إن عقليتنا المركبة فينا قد تطورت كثيراً ، وأصبحت أكثر قابلية لمقابلة الجدل المحتشم ، وأعظم مرونة لمعالجة المسائل المعقدة ، أكثر وأعظم مما كانت عليه من قبل ، وللتدليل على ذلك نعرض لمستر بريستلى Priestley وأعماله الأخيرة .

فهذا مؤلف نابه معروف للسواد الأعظم من الناس ، تبرز فى سمته شخصية مشاكس عنيد ، أقرب فى شدة مراسه إلى المزارعين الأقوياء منه إلى كاتب يدبّج المقالات ، إنه قوى كملاكم ، يتكلم بنبرات كالقرويين إذا هضبوا بالقول ، وهو لا يفتح فمه إلا بإشارات وإيماءات عنيفة ، متباينة الأثر فى سامعيه ، فإما أن تثير حقدهم عليه مدى الحياة ، أو تجعلهم أصدقاءه إلى الأبد .

وهو يكتب متدفقاً متمثلا ألواناً من العظمة ، ليحصل على مكافأة أدبية ، أو ليدير مسرحاً ، أو ليضرب فى الأرض فى رفقة أقاربه المنتشرين فى كل الأصقاع ، وقد أصاب النجاح بأمثال كتابه « الرفاق الأخيار The Good Companions » المحتفل بالرصانة والدعابة وتبسيط مبادىء الرق المأثورة عن تعاليم شارلز ديكنز Charles Dickens .

وقد أنشأ فى الوقت الأخير رسالة مسهبة بعنوان « نصف الليل فى الصحراء » وقصتين تمثيليتين بعنوان « الوقت وآل كونواى » و « كنت هنا من قبل » وتدور حوادثهما على استكناه أسرار الزمن ، وهل المستقبل

موجود منذ الأزل ؟ وهل نساق إليه قسرا ؟ أم نحن نصنعه بتصرفاتنا وأفعالنا مختارين ؟ وإذا كان الزمن هو هذه اللفائف التى تطوى : فهل لطوله نهاية ؟ أم هو غيب مستغلق ؟ أم أن الأفكار التى تمر ببالنا هى التى ترسمه كما يقول الفيلسوف العظيم نيتشه ؟

ومثلُ هذا الكاتب المتميز بصفاته الجوهرية ، ومثل سُمّاعه الذين يتبعونه بالتصفيق والتهليل ، صورةٌ من انجلترا الجديدة التى تبدو أبعد تأملا فى الحياة وإن دل ذلك على شىء فعلى تحول جديد قوامه الجرأة فى التعبير على نطاق شامل مطابق للحقيقة . ولنأخذ على سبيل التدليل اتجاه « ألدسُ هكسلى Aldous Huxley » هذا الذى يشار إليه بالبنان ويبدو حجة فى كل الاتجاهات التى يرمى إليها . إن طول قامته ستة أقدام وسبع بوصات فهو أول عملاق ينصبه التاريخ مرشداً للعقول ، وكان فى صغره طفل معجزات فأشار إليه « مارسيل بروست Marcel Proust » فى كتابه « البحث عن الوقت المفقود » كعَلمٍ من أعلام الأدب الأوروبى الحديث مع أنه لم يكن تجاوز فى ذلك الحين العشرين من عمره .



ألدس هكسلى

وهو مزاج من إرادة لا تلين ، وعزيمة لا يخمد أوارها ، ودأب لا يخفّف منه اعتلال صحته ، وتحزب أعمى لآرائه ، وقد جعل منه كلّ أولئك أشهر مؤلف انجليزى معاصر ، له اتجاهاته المتشعبة فى الأدب الإنجليزى وإحاطاته المتساوقة بالآداب الفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية والأغريقية ، هذا إلى توجيه رفيع لفن القصة ، وتلك الرشاقة وخفة الروح اللتين يجرى بهما الحوار مع القصد فى تصوير الطبائع ، فهو لا مشبه له عندنا ولا ندّ له فى هذا .

وينظر « ألدس هكسلى » فى عمله إلى مستقبل حافل بالطمأنينة كأديب بارز ولكنه لايقنع بذلك لأنه يدرك أن من واجب الرجل الفنان أن يوجه نفسه حيث يشاء نبوغه، على أن يكون هذا التوجيه لخير المجتمع ، ولذلك فقد كتب عن « الدنيا الجديدة الباسلة » فأنجز بكتابه هذا أعظم عمل فنى رفيع . ومع ماتوخّى فيه من البساطة والسهولة ، فقد أعدّه هجوماً على المدنية الأوروبية حاشداً فيه من ألوان الفكر والمعرفة مالم يحشده الفيلسوف « إشبنجلر Spengler » فى مجلديه الشهيرين .

وقد وصف فى كتابه هذا عقلية شاب أبيض ، نشأ بين قبائل السود المتوحشة ، وليس ثمت من صلة تربطه بالثقافة التى كوّنته غير أعمال شكسبير الأدبية ، فاستطاع هكسلى بهذا الوضع أن يكشف عن الوحشية وعدم التعقّل الشائعين فى كثير من المثُل المتجاوبة بها عبارات شكسبير والتى هى جزء من ثقافتنا، وعمَّا فى كثير من مثلنا العليا فى الحب والخطيئة والسلطان من آثار هذه الوحشية :

ولكنْ بوصفه دنيا جديدة، بنيت خارج نطاق تلك القبائل وعلى تخطيط من الأساليب العقلية الخالصة ، حيث يعرّف الحب بأنه تنظيم العلاقة بين الذكر والأنثى من الحيوان ، وليس ثمَّت تعريفٌ للخطيئة إلا أنها مايؤذى المجتمع ، فقد أبان عمّا فى أعمق غرائزنا من العقم والمجافاة لهذه الدنيا ، ورغم هذا فقد شقّت عبقرية هكسلى بهذا العمل اتجاها جديداً له خطره ، حطّم به البناء الثقافىّ الذى نعيش فيه جميعاً ، وسدّ المنفذ الوحيد المرئى لنا ، وكان من الحتم عليه إذا كان رجلا عظيما بحق ، أن يدلنا على منفذ آخر أمين نجد السلامة فيه أمرا واقعاً ملموساً .

وفى الواقع يتعيّن على هكسلى أن يجرد من نفسه فى المستقبل كاتباً إجتماعياً

أكثر منه فناناً ، كما تنطق بذلك أعماله الأخيرة فى رواية « ضرير فى غـــزّة Eylelss in Gaza » وفى مقاله « الغايات والوسائل Ends and Means » حيث يبشر برسالته الجديدة صريحاً مخلصاً أبلغ ما تكون الصراحة والإخلاص .

وهذه الرسالة الجديدة لاتختلف كثيراً عمّا بشر به تولستوى من قبل ، أى أن الانسان لايستطيع أن ينقذ نفسه إلا بالتقشف والنسك والتحرر من الرغبات السفلية الوضيعة ؛ وليس ببعيد أن يتاح لنا فى حياتنا شهود هذا الطور الجديد متفرداً بشخصيته الهامة التى تفرد بها تولستوى .

وقد أثبتت عبقرية هكسلى بهذا العمل الذى استرعى كل انتباه أنه يعدُّ بحق سليل العلامة هكسلى الكبير . صديق داروين وحواريُّه ، وأنه نشأ على غراره مشرباً بتعاليم اللاأدرية .

وقد نرى فى كتّاب كثيرين آخرين من الانجليز مايثبت أنهم مضوا فى ذات البحث عن تعليل الوحى والوصول إلى مصدر من وراء العقل يُمكّنهم من كشف أسرار الحياة ، ولقد أثّر ذلك فى بعض اللامعين من الناشئة فأخذوا بالمعتقدات الكاثوليكية التى آثروها عند الكاتب القصصى « إفلين وُف Evelyn Waugh » فى رواياته « التدلى والسقوط » و « قبضة من التراب » و « الأجسام الخسيسة » التى يذم فيها المجتمع الذى قام بعد الحرب ويقدح فيه ، بما أبدعته مخيلته وبما رُزقه من الثروة البيانية ، وكما فعل « جراهام جرين Graham Green » الذى برهن بروايته « بندقية للبيع » على أنه من أعظم كتاب الأقصوصة الموهوبين ، أصحاب الشعور المرهف كما كان ويلز فى صباه ، وكذلك كونراد وكبلنج أيام كانا من رواة الأقاصيص .

وإذا نظرنا خارج الكنيسة فانا نرى شارلس مورجان Charles Morgan الذى حاز نجاحاً باهراً وتفوقاً منقطع النظير بقصته « الينبوع » فسجل بها فتحاً

جديداً فى دراســـــة المثـل العليا للتصوف ، وكذلك « ناومى ميتشيصن Naomi Mitchison » الـكاتبة القاصّة التى اتخذت من المخلفات القديمة أو التراث الـكلاســـيكى مادة لروايات أشرب فيها العلم بنار البشرية المشبوبة ؛ وقد عملت مع « جيرالد هيرد Gerald Heard » الاخصائى فى عـــلم الاجتماع لإيجاد قاعدة دينية جديدة تلائم عصرنا هذا ، وكانت ميتشيصن إلى جانب ذلك من السياسيات المهيجات اللاتى يتلاعبن بالعواطف ؛ وما أكثر أولئك الذين أدى بهم بحثهم عن مصدر الوحى وتعليله لا إلى تغيير معتقداتهم الدينية بل معتقداتهم السياسية ؛ ومنهم شعـراء الشباب أمثـال « سيسيل داى لويس Cecil Day Lewis » « وستيفن سبندر Stephen Spender » و « ى . ه أودن W. H. Auden » الذين يعنون بصقل أشعارهم وتصفيتها لتمجد وتخلد بجمالها الموهوب وليس بالزخرف المجلوب ؛ و « فورستر E. M. Forster » الذى بقى أرق كتاب القصة وأغزرهم شاعرية ، و « رالف بيتز Ralph Bates » الذى أخرج النفيس من القصص القوى المؤثر عن حركات العمال فى أوروبا بقـلم ناقد مرهف الحس ، ومؤرخ موسيقى ، وكذلك « رالف فوكس Ralf Fox » واضع تاريخ حياة جنكيز خان ، و « ڤـيرچينيا وولف Virginia Woolf » الكاتبة العظيمة التى أصابت نجاحاً شـعبياً كبيراً بروايتها « الأعوام » التى رسمت فيها تدرج البخوت من الصبا الى مختلف أطوار العمر فى جيل كامل !

ولئن أصاب التحول والتغيير كل شىء فى مضطرب هذه التيارات فقد بقى شىء واحد لايتحول ولا يتغير ، ذلك هو معدن إنجلترا وعنصرها .

فنحن ننجب الأعلام بغير ما ضنّ أو منّ ، ونطلعهم مشابهين لأولئك الذين كانوا موضع المباهاة فى أيام سـابقة ، أيام كانت لنـا كل المعارف ، وكانت عظمتنا سافرة لاترق اليها شائبة .

ولقد أنجبنا أيضاً المحسنين النافعـــين من رجال البيوتات الذين نلقبهم بالارستقراطيين، ومع مايؤودهم من أثقال الخدمات العامة وما يحوطهم من المغريات الشتّى، وصنوف العبث واللهو، ومع أنهم لم تُهيَّأ لهم الفرص ليبرزوا فى مجال الأدب والفن، فقد أقبل بعضهم على عمله إقباله على لهوه بكل ماهيأته له الطبيعة من مزاج، وأعدته له مواهبه الفنية، فاجتمع لنا فى كتبهم وخطبهم ورسائلهم لون نفيس من الأدب تتجلى فيه الفطنة والذوق الرفيع.

ولقد أعطوا فى كل ماأنشأوا من الكلمات والأساليب، وصوروا من المعانى والأخيلة، الدليلَ على أن روح الجمود لم تكن من تقاليدنا فى يوم من الأيام.

القُـــبَّـــرة

للشاعر الانجليزى "پيرسى بيش شيلى"

ولدهذا العبقرى عام ١٧٩٢ ومات غريقا فى ليجهورن بايطاليا عام ١٨٢٢ ، وإن الثلاثين عاما التى عاشها لتتضاءل أمام نضجه الفنى وانتاجه الغزير الحافل بأسمى النماذج الشعرية فى قصائده الرائعة . ويعد بحق الشاعر الفرد الذى يتقدم وحده الشعراء نوابغ الاعمار فى جميع الاجيال حتى اليوم .



ويتفرد شعره بهذه الموسيقى المرحة الطلقة الصافية التى توصف بالقيثارة التى ايقظت اعذب الانغام فى قلب الحياة والتى انتزعت الرقة والحلاوة من جفاء الزمن وقساوته ، ولكن المدرسة الحديثة تعتبره اعظم الشعراء المتصوفة فى الانجليزية بعد وليم بليك .

وقصائده الثلاث فى السحابة ، والرياح الغربية ، والقبره ، من أشهر الغنائيات فى عالم الشعر

ولما كانت القصيدة الاخيرة من احفلها بصور الخيال والجمال التى لامشبه لها فقد آثرت نقلها الى العربية غير مجترىء على معانى الشاعر وافكاره وسياقه الشعرى بشىء من الحذف بل مضيفا مايقتضيه أظهار المضمر من المعنى وتبسيط المركب من الخيال مراعياً فى التعبير عن الاصل الانجليزى ماتوحى به مقتضيات البيان الشعرى العربى . وجامعا ماامكن بين الاثنين .

يا أيها الرُّوحُ يهفو حوله الفرحُ   تحيَّةً أيُّهذا الصادحُ المرحُ

من أمة الطير هذا اللحنُ ماسَمِعتْ   بمثله الأرضُ ، لاروضٌ ولا صَدَحُ

أنت الذى من سماءِ الروح منهلُه   خمرٌ إلهيةٌ لم تحـوها قَدَحُ

يفيضُ قلبُك ألحاناً يُسلسلها   فنٌ طليقٌ من الوجدان منسرحُ !

وعالياً ، عالياً ، لازلت منطلقاً عن الثرى : تَصِلُ الآفاقَ آمادا
مثل السحابة من نارٍ ، مُسَعَّرةً ؛ والبرقِ مؤتلقاً ؛ والنجمِ وقَّادا
يهفو جناحاك فى أعماق زرقتها وأنت تضرب فى الآفاق مرتادا
تشدو فتمعنُ فى أجوازها صُعُداً فأن عَلَوْتَ بها أمعنتَ إنشادا

° ° °

ومائج ٍ ذهبيِّ النُّور قد غرقتْ فى ذَوْبِه الشمسُ عَبْرَ العالم الثانى
توهجُ السحبَ البيضاءَ حمرتهُ فتستحيل عليها ذات ألوان
أشعةٌ ذات أمواجٍ غَدَوْتَ بها تطفو وترسبُ فى لُجِّها القانى
كأنما أنت جذلاناً تراوحنا روحٌ من الطَّرَب العلوىِّ نورانى

° ° °

تذوبُ حولك إمَّا طِرْتَ فى أفقٍ غلالُة الأرجوان الشاحب الساجى
كنجمةٍ فى سماء الليل خافقة تذوبُ فى فَلَقٍ للصبح وهَّاج
يامن تُطَرِّبنى ألحانُ غبطته وما رأيت له طيفاً بمعراج
ألاَّ أراكَ فإنى سامعٌ نغماً يهفو إلَّى بإطراب وإبهاج

° ° °

وصاعداً فى مضاءِ السهم أرسله قوسٌ من الكوكب الفضىِّ منزعُه
ينأى فيخبو رويداً وهْجُ شعلتهِ حتى يُلاشىَ كأنَّ الفجرَ يتبعه
ونرسل العينَ نرعاهُ هنا وهنا وما يبينُ لنا من أين مطلعه !
حتى إذا عزَّنا المرأى وأجهدنا دلَّ الشعورعلى أنْ ذاك موضعه ! !

هذى السماءُ بموسيقاكَ مائجةٌ والأرضُ يغمرها من صوتكَ الطربُ
وصفحةُ الليل أصغى ما يكون سوى غمامةٍ خلَّفتها وحدها السحبُ
وقد بدا القمرُ الوضَّاحُ يُمطرها ارسالَ ضوء على الآفاق تنسكبُ
يرى السموات سيلٌ من أشعتها تكاد تسبحُ فى طوفانه الشهبُ

ooo

من أنت ! يامن يجوب الليل منفرداً ولم تقعْ لى عليه بعدُ عينانِ ؟
أىَّ الخليقةَ قل لى أنت تشبُهه وأيها منك فى أوصافهِ دانى ؟
وهذه السُّحبُ أصباغاً مشكلةً فى رائع من فريد اللون فتّان
لا ينزل الغيثُ منها مثلما نزلتْ شتَّى أغانيك فى سحرىّ ألحان !

ooo

كشاعرٍ فى سماء الفكر مختبىءٍ دلَّ الوجودَ عليه لحنهُ العالى
ألحان أغنيــــة أمسى يرتلها كمرسلٍ من نشيد الخلد سيّال
أسَلْنَ بالعالم السالى خوالجهُ حتى استحال شجوناً قلبهُ الخالى
بَعثنَ من ألمٍ فيهِ ومن أملٍ ما لم يكنْ منهُ فى يوم على بال

ooo

كأنَّ حوريةً فى ظلِّ شاهقة من البروجِ تقضِّى العيش فى خُلسِ
لم يُغمض النومُ عينيها ولا خمدَتْ نيرانُ قلب لها فى لحمة الغلسِ
باتتْ تلطِّف آلاماً تساورها . فى عزلة بنشيدٍ ساحرِ الجرس
تطوفُ الحانُ موسيقاهُ تخدعها كأنهُ الحبُّ فى إيقاعهِ السّلسِ

كأنّ بين الرُّبا التفّتْ خمائلها ... فراشةٌ من سبيك التبر جَلواءُ
ياحسنَ أجنحةٍ منها مذهبةٍ ... قد رقّشتها من الأسحارِ أنداءُ
تُرِى السماءَ صفاءً فهي إنْ خطرتْ ... فللسماءِ بهذا اللون إغراءُ
تجلو الأزاهرَ والأعشابَ طلعتُها ... إذا بدتْ ولها فيهن إخفاءُ

° ° °

كزهرةِ الحقلِ فى غيناء سرحتها ... لم يملأ النورُ منْ أجفانها حدَقا
حتى إذا لفحتها الريحُ هاجرةً ... زكتْ وأربتْ على أملودها ورَقا
وأرّجَ الحقلَ من أنفاسها عبقٌ ... يشوقُ كلَّ جناحٍ نحوها خفقا
تهفو اليها من الأنسامِ أجنحةٌ ... منْ كلِّ مُنطلقٍ من عطرِها سرقا

° ° °

ووقعُ لحنك فى الأسحار أرخم من ... وقع الندى فوق أعشاب البساتين
قد نقَّط الزَّهرَ المنضورَ سلسلهُ ... وجاد بالطلِّ أفوافَ الرياحين
يامنْ على صوته فى الأفق منسجماً ... تصحو الأزاهرُ فى أفنانها الغينِ
كلُّ البدائع مهما افتنَّ مبدعُها ... لم تعْدُ لحنَكَ فى صوغٍ وتلحين .

° ° °

قل لى أمن ملكوت الروح منطلقٌ ... أم طائرٌ أنت فى الآفاق هيمانُ ؟
أى الخواطر من حسن ومن بهج ... يشيعها منك فى الارواح وجدانُ ؟
لم تشرئبَّ قلوبٌ من أضالعها ... لغير صوتك أو تنصبّ آذانُ
حديثُ حبٍ وخمرٍ بات يسكبُه ... من جانب الله أنغام وألحانُ ! !

من أين تلك الأغانى أنت ترسلها ؟ من أى مطَّرِدِ الينبوع منسجم ؟
من أى ثائرة الأمواج زاخرةٍ ؟ وأى تلك المروج العذبة النسمِ ؟
من أى ضاحيةِ الآفاق صاحيةٍ ؟ أى السهولة والأغوار والقممِ ؟
وأى حبٍّ أليفٍ منك أووطنٍ ؟ وأى جهلٍ لما نلقاهُ من ألمِ ؟

ooo

وفى منامك والآفاقُ حالمــةٌ وفى انتباهك والظلماءُ إصغاءُ
لابدَّ من نبإٍ للسوت تعرفهُ وفى فؤادك عنهُ اليوم أشياءُ
لأنت أعمق فكراً فى حقائقه مما نراهُ ونحن اليوم أحياءُ
أولا افكيف انسجام اللحن مضطرداً يُجريه من رائق البللور لألاءُ ! ؟

ooo

إنّا نفكر فى ماضٍ بلا أثرٍ ومُقبلٍ من حياةٍ كلها غيبُ
ومستحيلٍ نرجّى برقَ ديمته وكُلُّ مانرتجيه منــهُ مختلبُ
وكم لنا ضحكاتٌ غيرُ صادقةٍ مالم يشبْ صفوها التبريحُ والوصَبُ
وإنَّ أشهى الأغانى فى مسامعنا ماسالَ وهو حزينُ اللحن مكتئبُ !

ooo

هبنا على رغم هذا ليس يجمعنا بالحقد أو كبرياء النفس أوهاقُ
فلا القلوبُ لدى البأساءِ جازعةٌ ولا بهنَّ إذا روّعن إشفاقُ
وأننا قد درجنا فى خليقتنا بلا دموعٍ تدرّيهنَّ آماقُ
فكيف كنا إذاً نلقاكَ فى فرحٍ ! أو يغمر الروحَ لحنٌ منك رقراقُ ! ؟

يا أعذبَ الطير موسيقى وأروعها من كلِّ رائق أنغام وألحانِ

ويا أعزَّ لنا من كلِّ ماجمعت نفائسُ الكتب من دُرِّىِّ تبيانِ

ياما أحقَّ اقتداراً منكَ قدرتهُ بشاعر لبقٍ التصوير فنّانِ

أنت المبرَّأُ فى حبٍّ وعاطفةٍ يامن تعاليتَ عن أرضٍ وإنسانِ

• • •

أما تُعلمنى ممــا يفيضُ به غناؤكَ العذبُ تطراباً وتحنانا !

ذاكَ الجنونُ الذى يهدى توافقهُ إلَّى من صدَحات الخلد ألحانا !

ألستَ تُلهمنى وحياً يفيض به فمى ، فأملأُ قلبَ الكون إيمانا !

أشدو فيُلقى إلىّ الكونُ مسمعهُ يصغى إلَّى كما أُصغى لك الآنا !

الشاعر وكتابه

للشاعرة الأمريكية "ادنا فنسنت ملاي"

إلى الوراء أيها الموت ؛ إلى وجرك أيها المتلوّن الختّال ؛ إنى استرقُ أنفاسى من جذور هذا النبات ؛ أَنشِبْ براثنك ماشئت ، واستثر كل مافيك من قوة ، فستجهد كثيراً ، وستضيق بضجرك ليالىَ طويلة ، وستطمر كثيراً من العظام قبل أن تسحق عظمةً واحدةً من هيكلى الرقيق .

ومتى يدركنى الموت ؟ ومتى يحل بى الفناء ؟

أعند مايشيع الذبول فى هذا الجسد ، ويلفُّ نبات الأرض هذا الرأس بضفائره الصُّفر ؟ أعند مايقف العشاق يعجبون مني ويتساءلون عنى ، مَنْ أكون ؟ أنا ذلك الراقد تحت أطباق الثرى محتجباً عن ضوء القمر ؟

أهذا فنائى الأبدىُّ أيها الموت ؟ أعند مايقف هذا القلب عن خفقانه فلا يردد شهيقاً ولا يصعد زفيراً ؟

أبهذه النهاية المهينة تلاشى روحى أيها الموت ؟

آه .. عند مايذوب ثلج الشتاء ، أيها الأصدقاء ، ويساقط ذوبهُ الرغام والهشيم فلا تبكوا علَّى ، ولا تندبونى يا رفاقى ..

ليس فى شيء من هذا معنى من معانى فنائى ... بل تحققوا موتى الخالد ، فى تلك الساعة التى لايجد كتابى قارئاً له ... ساعة تتلقفه الأرض ويطويه الخمول ويحجبهُ النسيان ، فلا يضمُّهُ صدر ، ولا ترتفع له صيحةُ معجَبٍ بالشيء

الذى لم يُروَ بعد ، هذا الذى تنطوى عليه صحائفه ...

وعند ما تُرِثُّ كثرة العرض نسخةً من أكداسه ، فلا تجدُ من عَرَضِ الناس شارياً بعد طول انتظار ، ينقدها الثمن البخس ، ويأخذها صفقة غبن .

وعند ماتلق أكواماً مهملةً مركومة فى طريقٍ قذر . تلطخهُ العجلات العابرة بالوحَّل والدنس .

أيها المعجب ... قف قليلا وانظر خلال غبار القرون ، وتناول هذا الكتاب ثم قلّبْ صفحاته المهلهلة بيدٍ رفيقة ؛ اقرأنى ولا تكلْنى للموت !

تمصَّ هذه الرسائل الذَّابلة ، والمس المناعة فى هذا الغلاف الحزين ، تجدنى ملء قلبك وسمعك ، فقد كنتُ يوماً ذات هذا الكتاب !

عند ماتحول هــــذه الشرايين أليافاً فى جسم الأرض ، فانظر إلى هذين المحجرين الغائرين ، تحت هذا الحَبِّ النامى المستوفز لعودة الربيع ، وهو يخترقهما بجذوره المنطلقة إنطلاق النيازك المنقضة ، واشهد هذه العروق الوردية ، وهى تهوى إلى قرارة هذا الأصيص الأسود [يعنى جمجمته] ثم تنفتل لتصوب صعداً كأنما تتنسم المطر !

أيها الصبية ... أيتها الصبايا ، إذا ، استلقيتم تحت هذا السياج ، وأخذتم بأسباب النجوى ، فاذكرونى ولا تكلونى للفناء ؛ أيها الشبان ، أيتها الشابات ، أنتم ايها المتخطرون فى الغابات محدّقين إلى طَلْع الغار الوردى ، مستغرقين فى البكاء والعتاب ، أمزجونى بعهودكم ووعودكم ......

لاتتركونى للموت ! أيها المزارعون الرائحون تحت الغيم الرقيق ، وتحت الشمس المتلألئة ، واذكرونى عند ماتهيئون حصادكم ، وتجمعون الحبَّ من من ذوائب الشجرات اليابسة ، وعند مايلوّح لفحُ الظهيرة القائظة ثمر الفِرصاد فيستحيل جَنىً شهيّاً .

وأنتم أيها الرعاة المتطلعون من أعالى التلال، حيث المروجُ الخضرُ وسنانة تحلم بجلجلة الأجراس، مُرِنَّةً فى أعناق القطيع الأمعط.

وأنتم أيها الملاحون! أيها الصارخون فى صخب العاصفة، أيها الصيادون التائهون فى صقيع الشتاء وفى بُهر الجليد الأشهب.

إذكرونى ولا تكلونى للموت!!

أيهـــا الرجال! يامن يشتهون الرقاد، ويا من يشترون باليقظة لحظات من المرح، إذا مامرت بكم أغنية قديمة، ذات روعة وصفاء، فاذكرونى! إنها صادرة منى...

أيتهـا النساء المكدودات، أيتهـــا المتلسات شيئاً من الراحـة إلى أن يغلَى القِـدرْ، إنتزعنَ منى بعضَ السلوى وخذنَ منى مسراتـكنَّ؛ وأنتنَّ أيتها الباكيات فى أعماقهنَّ حتى لايكدّرن بالبكاء نوم الرجال، إمزجننى ببكائـكنَّ.

أيها الأطفال، أيها السارقون من ضحكات العجائز، لتركعوا عند جِزْع مُنَقَّـط بالندى، أو تحت طنفِ تَزويه الأشجار العارية، لتتندروا بأحاديث القداسة والحب، وأقاصيص الأبطال واللصوص، وأساطير المرَدَة! إذكرونى ولا تكلونى للموت.

إن الشمس التى تضىء فى الليـل، والجبال الراسية على هـذه الأودية، تحملنى إلى النـور حيث أراوحكم وأغاديكم من هـذه الشرفة كهذه الطيور المرفرفة عليها.

وأنت أيها اللحاد!! إمضِ فى عملك، إغمرنى بوابلٍ من حصبك، ثم ثَنِّ بهذا المعول؛ فستنفرط عقود كثير من الأزهار، وسيصدأ كثير من الأكاليـل وضفائر الذهب، وسأمضى أنا فى غنائى بينما تطمر أنت هـذه الأكوام صلصالا سافياً فى الأرض.

عَوْدَةُ المـــلاّح

لشاعر العرش البريطاني "چون ماسفيلد"

يافرحتى ! للبحر أرجعُ ثانياً　　متفرِّداً بعبابه وسمائه
أقصى مُنَاىَ سفينةٌ ممشوقةٌ　　وبزوغُ نجم أهتدى بضيائه
وصريرُ دفَّتها ، وعزْفُ رياحهِ　　وخفوقُ قلعٍ أبيضٍ فى مائه
وأَرى الضبابَ يرفُّ فوق جبينه　　فى شاهبٍ من لونه وروائه
يجلوه ألألاَّقُ رماديُّ السَّنى　　متطلعٌ بالفجر خلفَ فضائه

▫▫▫

يافرحتى ! للبحر أرجعُ ثانياً　　كما ألبِّ المدَّ فى طفرَاَته
هذا المزمجرُ ، لست أَنكرُ صوتَهُ ،　　إنَّ الوضوحَ يشيعُ فى نبراته
أَقْصَى مُنَاىَ لديه يومٌ عاصفٌ　　يهفو رقيقُ الغيم فى سبُحاته
ورشاشُ موج مستطارٌ تحته　　زَبَدٌ يفور الرَّغْوُ ملءَ كراته
وضجيــــج زَجٍّ مائه متخبطاً　　بالموج وهو يثــــير من صرخاته

▫▫▫

يافرحتى ! للبحر أَرجع ثانيــاً　　جَوَّابَ آفاقٍ ، غريبَ مسالكِ
أَطوى مسارحَ طيرهِ ومسابحاً　　للحوت عَبْرَ طريقيَ المتشابك
حيث الرياحُ كأَنما وخزاتها　　حَــدُّ المُدَى ، وشبا الحسام الفاتك
أَقصى مُنَاىَ روايةٌ محبوكةٌ　　من نسج قرصانٍ طروب ضاحك
ولذيذُ أحلامٍ وقد طابَ الكرى　　وتزايلت صُوَرٌ هناك تواركى ! !

أغنيـــة القطيــع

من رمزيات الشاعر المعاصر "أوزبرت سيتول"

من خلال حظائرنا التى شيدها الجبروت ، رحنا نرقب أحزان العالم فى صمت ورباطة جأش .

لقد عرفنا الدم المهراق ، ورأينا شؤبوبه وكيف ينبثق فى غير ما تنهدة أو حشرجة ؛ ورأينا ذرارينا وكيف تُعلف ويُرجى سمنها للخنجر المصلت فى يد الناحر .

فى عيوننا الصافية ترقد كل خفايا الأبدية وتتوارى أسرار الفناء أو العدم .

وإذ يترقرق فى أسمـــاعنا ثغاء الزعيم نخطر فى مرح ورشاقة مجاوبين ثغاءه ، فإن أجفل رأيتنا فى أثره كموجة متدفقة من الجنون حتى يقعد به العثار ، وإذ ذاك نتطلع إلى زعيم جديد نسير تحت إمرته .

صاح خروف متلكىء فى آخر القطيع « ولماذا تروعنا هذه المجزرة المَمَجَّدَة فننكص على أعقابنا ! ؟ » . . . . . .

ولكن أسراب القطيع راحت تثغو فى غضب وكأنها تقول « ألا تذكر كيف ذهبنا بأقدام خالية من القذر ورجعنا بأدمغة فارغة ! ؟ » . إن نبل الصنيع يقتضينا الفرار ما استطعنا إليهِ سبيلا » .

« إننا نحمى بذلك خرافاً لن تجود بمثلها البطون » .

فإذا ما أباح قطيعٌ دَمه فإن المعيز ستذكر لنا هذا القول المأثور ؟ »

. . . . . . لحظـــة ثم هوى الراعى علينا بعصاه صارخاً مؤنبـــاً إلى الوراء ! إلى حظائركم أيها الحمق » .

بيت الراعى

للشاعر الفرنسى "ألفرد دى ڤينى"

ولد ألفرد دى فينى عام ١٧٩٧ ، ومات عام ١٨٦٣ فهو من شعراء النهضة التى وجهت الادب الفرنسى وجهات جديدة رفيعة .

وقصيدته هذه فى بيت الراعى La Maison Du Berger التى أهداها إلى حبيبته « أيفا » أو « مدام درفال » أو المرأة التى يعنيها ، من أروع ما أنشأه من الشعر ، وتقع فى ثمانية وأربعين مقطعا ، آثرنا ترجمة المقاطع الثمانية الاولى منها لاتفاقها مع عنوان القصيدة ، ولأنها ذات موضوع طريف حافل ، يتكلم فيه الشاعر بدقة ورقة وصراحة وعظمة عن القلب والروح والجسد ، وشقاء النفس الشاعرة بهذا العالم الجارح ، ومدنيته الجافية القاسية ، وهو فى هذه الأبيات يعبر عن حبه الأسمى للطبيعة ويجلو من براءتها ونقائها وحنانها صوراً فتانة أخاذة .



وشعر دى فينى كما وصفه « سنت بيف » يجمع بين الآلام والاستسلام والفخار وهو شعر البطولة والمآسى ، شعر القلب الابى الجريح ، شعر المتشائم الرقيق الشعور ، الناطق فى حالتى اليقظة والشرود بروح المتصوف العذبة ، ورموزه الساحرة ، فى أسلوب يبدو أحيانا غامضاً ، ولكنه عظيم وخلاب ؛ ويبدو أحيانا أخرى فظيعا فى صراحته ولكنه لم يقل فيه كل شىء عن أسرار قلبه ، التى ظل محتفظا بها حيال القدر الاخرس ؛

فهذه العبارات الغامضة ، التى تحتمل الكثير من التأويل وهذه الاخيلة المتشعبة التى يذهب فيها الفكر بعيدا ، حاولنا أن نوفق بين أمانة النقل وبين تعريبها واضحة جلية فى هذه الترجمة التى ننسخ بها ترجمة أخرى سبق نشرها من قبل .

إن يكُنْ قلبُكِ الشجىُّ المعنَّى   أرهقتهُ حيـــاتُنا أعباءَ
مثل نسرٍ دامى الجناحين مضْنًى   مستميتاً يصارعُ الأعياءَ

حاملاً فوق مُسْتَرَقٍّ جناحٍ مثل قلبي من بؤس هذى الحياة
عالماً قاتلاً سَحيق النواحي باردَ الجـوِّ ، حالك الظلمات

...

رازحاً فى عذابه يتـلوَّى مُثْقَلاً من فوادح الأعباءِ
كلما ضجَّ تحتهن تنزَّى جرحُه الخالدُ السخينُ الدماءِ

...

أو يَكُنْ بات لا يرى الحبَّ، هذا الـكوكبَ الهادىَ الصدوق الوفيّا
من له وحده يضىء ، ويجلو الـسكون فى ناظريه أفقاً وضيّا

...

أو تَكُنْ روحُكِ السجينةُ عافتْ ذلك الخبز فى الحياة طِلابا
هو خبزُ الأسير فى القيد باتتْ نفسُه من موارد الحتفِ قابا

...

يَتلقَّاهُ مُكْرَهاً بيـديهِ ملقياً من يمينـه المجدافا
وهو يحنى للبحر شاحبَ وجهٍ بينما يندبُ الحياةَ اعتسافا

...

وهو بينا يقتافُ فى الهدَّارِ مَنْفَذاً بين موجه للفرارِ
إذ يرَى فوق مِنْكَبٍ منه عارى وصمةَ الذلِّ صُوِّرَتْ بالنارِ

...

أو يَكُنْ جِسمُك الحيُّ عَرَتْهُ هِزَّةٌ من عواطفٍ كامناتٍ
بعد ماملَّ عالماً أرهقتْهُ فى حماهُ جوارحُ النظرات

...

باحثاً فى قصىٍّ تلك الحزونِ ليدارى جمالَهَ الفتَّانا
عن مكان من العيون مصونٍ فيه يَحمى جلالَه أن يهُانا

أو تَكُنْ منكِ عافتْ الشفتان   كاذبَ القول تستقيه سُماما
أو يَكُن قد توردَ الخدّانِ   خجلاً من رُوًى مُلِئْنَ أثاما

• • •

فاهجرى المُدْنَ وارحلى لايَمَسْكِ   ذل عيش فيهنَّ غيرُ طليق
إرحلى الآن ! لاينَلْ قدميكِ   دَنَسٌ من غبار هذا الطريق !

• • •

أشرقى من سماء فكرك حيناً   وانظريهـا فى ذِلَّةٍ وإسار
نُصِبَتْ للخلائق المرهقينـا   كصخور قُدَّتْ من الأقدار

• • •

وانظرى للحقول والغابات   حُرَّةً طَلْقَـةً كهذا البحر
حول تلك الجزائر المعتمات   ولْتَكُنْ فى يديك طاقةُ زهر

• • •

تجدين الطبيعة الآن منكِ   فى انتظار رهيبة الإصغاءِ
والثرى مرسلا على قدميكِ   من تعاشيبه سحابَ الماءِ

• • •

وإذا الأرضُ من غروبِ الشمس   رنَّحتْها تَنَهُّدَاتُ الوداعِ
وإذا هـذه الزنابق تُمسى   وهى تهتز بالأريج المضاعِ

• • •

واختفَى فى فضائهِ الجَبَلُ النا   ئى ، ومُدَّتْ معابدُ الصفصافِ
ناصلاتِ الألوانِ فى صَفْحَةِ الما   ءِ غصوناً نَقِيَّةَ الأفوافِ

• • •

وتهادى هنالك الشَّفَقُ العا   نى لِيلْقَى وِسادَهَ فى الوادى
فوق عشبٍ من الزمرد فتّا   نٍ وعُشْبٍ مُذَهَّب الأبراد

تحت هذى الجزوع مستحيات حيث هذا النبع الفريد النائى
بين هذى الخمائلِ الحالمات وهى تهتزّ رِعْدَةً فى الفضاءِ

• • •

حيث يسرى مُسْتخفياً فى حجبه لائذاً بالكروم مِثْلَ الظلِّ
ملقياً فى الغدير شاهبِ ثوبه فاتحاً فى المساءِ سِجن الليلِ

• • •

فوق طودى نَبْتٌ كثيف تحامى خطواتِ الصيَّاد عند الدبيبِ
عالياً عن جباهنا يتسامى وهو مثوى الراعى، ومأوى الغريبِ

• • •

فتعالَىْ هنا نجددْ ذماما ونخبِّىءْ خطيئة وغراما
قُدِّسَتْ من خطيئة، لا أثاما، قد دفعنا لفعلها إلهاما

• • •

وإذا كان ذلك العشبُ خفضًا وهو يهتزُّ هِزَّةَ المرتاعِ
فَتعالَىْ! إنى أدحرجُ أرضا لك تحت الظلام بيتَ الرّاعى!

• • •

هو بيتٌ يسرى على عجلاتٍ سَمْتَ عينيك سَقْفُهُ المزدانُ
عاطرُ الباب مُعْتِمُ الرحباتِ مثل خَدَّيْكِ لونُهُ المرجانُ

• • •

فيه ظِلٌّ وفيه زهرٌ نضيرُ بينها خلوةٌ لنا وتدانى
مَخْدَعٌ صامتُ الفراش وثيرُ يلتقى فيه شَعْرُنا فى حنان!

الليلة الأولى

كانت الشمس الغاربة ترسل أشعتها الأخيرة على صفحات الماء ، وفى حواشى الغمام الأبيض ، وقد بدت منائر فينسيا الرائعة ذات القرميد الأحمر ، والآجر الوردى ، كأنها سهام من النار مصوبة إلى عدو لمّا تظهرّ طلائعه فى الأفق البعيد . .

واقتربت السفينة رويداً من الساحل وقد اتسع مدى النظر فى الخليج الفاتن ، الذى اختارته ملكة الأدرياتيك عرشاً لها منذ أجيال بعيدة ، وامتد سلطانها منه على البلاد المترامية والبحار القاصية فى ظل جمهوريتها العتيدة ، هذا العرش الذى أفرغت الطبيعة فى تنسيقه كل ما أوتيت من ذوق ورزقت من بصر ؛ فهنا الماء الأزرق يأتلق فى ثبجة الشفق الأرجوانى ، وهنا الصخور الرابضة على جزيرة جورجيا الصغيرة وقد تدلت من فوقها الأشجار حتى لامست بأوراقها جبين البحر ، كعذارى يتلعن بأعناقهن ليشهدن منظراً معجباً ؛ وهناك عبر الساحل الدور البيزانطية بشرفاتها الزجاجية الكبيرة وكأنما ينبثق من كل نافذة شؤبوب من اللهب ، وبين هذه وتلك تتأرجح الجندولات بقياديمها الفضية على صدر الماء ، وتذهب وتجىء الزوارق بأشرعتها المختلفة الألوان وقد خفقت فى حواشيها نسمات المساء ، وترددت منها صدحات مطربات على إيقاع ألحان رخيمة يعلو ويخفت صداها فى وسط هذا المضطرب العجيب !

ورست السفينة ، وعلا ضجيج النوتية ، وأخذ الركاب ينادون الحمالين لرفع أمتعتهم ؛ ووقفت إلى مغادرة السفينة دون عناء ، وبعد لحظات كان الجندول يتخطر بى بين الأمواج الهادئة وينعطف بى فى قنوات المدينة تحت الجسور الرائعة التى لا مشبه لها فى العالم ، وقد بدأ الليل يبسط جناحيه الغدافيين على ما حولنا ، والنوتى يصيح كلما اقترب من مفرق قناة منبهاً القادم إلى مكانه ، وعبست السماء دون إنذار ، وانهمر المطر مدراراً فلم ألتفت إلى هذا المزاج الغريب الذى تفردت به طبيعة أوروبا ، فقد كنت مأخوذاً بسحر هذه المدينة وجمالها ولطافة الذوق المنبث فى كل حجر من أحجارها ؛ واستغرقت شعورى هذه المشاهد البديعة ونحن نجوس خلالى القنوات تحت أضواء المصابيح المعلقة على أبواب الدور وهى تسرج وتطفىء فى مهاب الهواء البارد ، وصاح النوتى وقد أشرفنا على قناة كبيرة : هذا هو الفندق ياسنيور . . وهذا قنال « سان ماركو » .

ووثبت من الجندول باللهفة التى تستولى دائماً على كل سائح يرتاد بلداً غريباً وسرعان ما وجدت أمتعتى فى الغرفة المختارة ، فخلعت معطفى وغيرت ثوبى وغادرت الغرفة عجلا عارى الرأس ، تحية مستمرة للمدينة التى كانت زيارتها حلماً من أحلامى . . . .

وحينما توسطت ردهة الفندق هتفت بى فتاته : المطر غزير ياسنيور ! قلت : هذا جميل يا آنسة ؛ ولم يكن ردى مبنياً على المغامرة أو عدم الاكتراث فنى سواحل مصر الشمالية ألفت منذ حداثتى المطر المنهمر ، والبحر المضطرب ، والسماء الغائمة ، والنوء العاصف ، والبرق اللامع . . وهذا سر الملاح التائه الذى عرفه ركاب السفينة المتأرجحة فى يد العاصفة وهم يعجبون من هذا الفتى الأسمر الذى يقتحم غرفة المائدة ليملأ

معدته بالطعام بينما هم مستلقون على ظهورهم من دوار البحر أو ممسكون بمعداتهم الخاوية من الألم والاضطراب ؛

وابتسمت الفتـاة قائلة لى برطانتهـا الإنجليزية : إلى أين ؟ قلت : إلى ميـدان « سان ماركو » . فأومأت بيدها اللطيفة إلى جسر صغير ؛ واندفعت حيث أشارت ، وما كدت أرفع رأسى حتى وجدتنى حيال مشهد ، إن أنس فلن أنسه ما حييت ، وقفت حيث أنا وسُمِّرَ ناظراى فيما حولى ومرت لحظات كأنها نهزات وحى هامر أو إلهام غامر ، وأخذت عيناى تتبينان المرائى وتتثبتان مما تريان تحت أضواء العواكس الكهربائية ، والثريات المعلقة ، بنظام هندسى فريد فى أرجاء المكان . . هذا ميدان « سان ماركو » ! أى روعة ؟ أى فتنـة ؟ إن الألفـاظ عاجزة عن تصـوير ما أرى ، وأجد نفسى مفعمة بما لا طاقة لى على الابانة عنه أو وصفه ؛ غاص بصرى فى هذا الجمع الحاشد وكأن يوماً من أيام فنيسيا القديمة قد عادها هذا المساء ، وكأن هذا الحشد فى انتظار الدوج العظيم ، مرتقباً طلوعه من شرفة القصر الخالد ، كل العيون متجهة حيث الكنيسة وحيث القصر وحيث البناء التاريخى العجيب الذى يحيط بالميدان إحاطة السوار بالمعصم ، وقد نهض برج الساعة فى ركن الميدان سامقاً كأنه عملاق من عمالقة الأساطير أو كأنه « جلفَر » لفظ أنفاسه حيث هو دون أن يشعر به الناس !!

تحركت قدماى ، ونزلت الميدان ، عن يمينى وعن شمالى موائد مصفوفة ، ومقاعد مبثوثة ، غاصة بالجالسين ، مزدحمة بالوافدين من شُعَب المدينة ، ومن حولهم جمهور سائر لا ينقطع كأنه سلسلة متصلة الحلقات تلف على دولاب دائر ؛ وفى وسط الميدان نهضت منصة الموسيقى برجالها تحت الأضواء الباهرة . وقد وقف الرجال بأردية السهرة السوداء وفى أيديهم آلات العزف والنفخ والنقر.

واشرأبت الأعناق ، ودارت العيون ووقف السائرون فى أماكنهم ، وأمسكت كل شفة عن همسها ، وارتفعت يد « المايسترو » فبدأ اللحن هادئاً ثم تعالى رويداً ، ثم انفجر كأنه عين ثرَّة دافقة ، ثم ماجت الألحان فكانت مزاجاً أخاذاً يثير الشجو ويهز القلب ويفعم النفس ؛ وانتهت الموسيقى من عزفها وارتج الميــدان بالتصفيق وهتاف التقدير والاستحسان ، وانطلق غلمان الخان مطوفين بالموائد حتى بدأت الموسيقى لحنها الثانى فلم يكن ثَمَّت من سعادة يحلم بها إنسان أكثر من هذه الليلة ، كان مطر ، ولكن ماذا يفعل المطر بهذه النفوس المتعطشة إلى فيض هذا الفن العــالى ؟ وما بلل الثياب وارتعاش الأجسام حيال هذا السحر الدافق ؟ إذ تسبح النفوس وتنهل القلوب وتتكلم العيون وتتدانى الرؤوس الحانية وتتشابك الأيدى المحبة كأنما تجدد ميثاقها لسلطان الحب القاهر على هيكل الفن الساحر !

واشتد المطر فحال دون العزف وجمع الرجال أوراقهم وغادروا المكان ونهض الناس ونهضت بينهم أتملى بناء المكتبة ، وبينا أغادر المكان مر بى رجل تترفق ساعده سيــدة صغيرة غريرة كأنها حمامة مقدسة من حمــام هذا الميدان ولكنها ذات ريش أبيض . . . وأخذ الرجل يناقش السيدة وهى تعارضه وتتحدّاه ، فهمت هذا من حركاتهما قبل أن أفهمه من لغتهما ! ونظر الرجل إلى فوجدنى إزاءه فرفع يده مرات بالتحية هاشاً ، فأحنيت رأسى محيياً باسماً ، ولم يترك لى فرصة حتى أقبل علىّ قائلا : هل للسيد أن يدلنى على ريالتو ؟ قلت : ما هذه الريالتو ؟ وكانت إيطالية الرجل سقيمة حتى لا يكاد يُبين ، فتدخلت السيدة وتكلمت بالانجليزية وبطلاقة . . . : هو يسأل عن « پونت دى ريالتو » قلت : المعذرة ياسيدتى ، إنى غريب هنا ، حضرت الليلة ولمَّا يمض علىّ فى هذه المدينة ساعتان ؛ فافتر ثغرها ، وأدرك

الرجل معنى ما أقول فسألنى . ألدى السيد مانع من صحبتنا فنحن غريبان أيضاً ثم استطرد فى سؤاله :

أأنت هنا وحدك ؟

قلت : نعم .

قال : وأين زوجتك ؟

قلت : لا زوج لى .

فتعجب الرجل وكأنما كان جوابى باعثاً على استثارة دهشته .

قلت : هل فى الأمر غرابة ؟

فابتسم قائلا : كلا ولكن ڤينسيا مدينة العرائس !

قلت : إذن أنتما زوجان جديدان ؟

فغضت السيدة ناظرها حياء وتورد خداها وضغطت على ساعد زوجها بلطف ورقة كأنما تمنعه من الافاضة !

فابتسمت لهما وسألتهما : ألا تعرفان شيئاً عن هذه المدينة ؟

فهز الرجل رأسه علامة النفى ؛

قلت : إذن سأتولى أنا السؤال عن ريالتو لأنى أتكلم الإيطالية قليلا .

ووضعنا أيدينا فى أيدى بعضنا البعض بحركة طبيعية محضة كأننا رفقاء معرقون فى المودة .

واخترق ثلاثتنا الميدان صفاً واحداً حتى حاذينا البرج السامق الذى تصدع منذ ربع قرن وجدد بناؤه قبل الحرب العظمى بقليل فأخذت خطواتنا تهدأ وأنظارنا تتجه نحو الكنيسة وخيولها الأربعة البرنزية اللامعة .

قلت : ما أبدع هذا البناء !

فسألنى الرجل : أولم تشهده غير الآن ؟

فأغنتنى السيدة عن الجواب ، وأخذت تداعب زوجها : ألم يقل لك أنه لم يمض عليه غير ساعتين فى المدينة ؟

واقتربنا ملياً من مدخل الكنيسة وتلاقت نظراتنا فابتسمنا وقد زاد فيض النور ، فتابع الرجل حديثه :

لشد ماتروعنى هذه الخيول البرنزية المطلة من فوق المدخل , صدقنى أيها الرفيق إنى أحبها وأخافها فى وقت واحد ، فانى كلما وقفت أتأمل اقتدار الفن الذى صنعها ، أتخيلها حية تتحرك وأنها ستطؤنى بحوافرها هذه !.

ثم ملنا إلى الصور المزدانة بها واجهة البناء المصنوع من قطع الموزاييك البللورى والفضى واللازوردى والأصفر الفاقع والأحمر القانى ؛

قلت للصديق : لقد جاء دورى .. قال : حسناً .. قلت : أنظر إلى هذه الصورة فأخذ يتأملها وأنا أحاوره : هذه جثة الرسول مرقص . هذا الرسول الذى ضنّ البنادقة على مصر بجثته فعملوا على اغتصابها فهتف الرجل : ومن أين لك ذلك ؟

قلت : تأمل ياصديقى فان التاريخ يحمل مسئولية روايتى هذه جثة الرسول فى الصندوق مغطاة بأوراق الشجـــر الأخضر واللحم الطرىء ؛ وها هم الخونة بأزيائهم الشرقية يعينون المغتصبين على إخفاء الجثة ونقلها إلى السفينة المنتظرة . . فسألتنى السيدة بدورها : وماذا صنعوا بالجثة ؟ قلت كما ترين ، هـذا مقرها وهذا البناء هيكلها العتيد !

فقالت مداعبة : إذن لاضير أيها السيد ولا غبن ، فلو بقيت فى مصر لما أقيم لها مثل هذا البناء النادر المثال الذى يتحدّى الفنانين بأناقته وفخامته ، فحنيت رأسى اعترافاً بمنطقها السليم ، وسرنا نتأمل العقود الرائعة ذات العمد الرخامية النـاطقة بأعاجيب الفن فى قصر « الدوج » فقلت للسيدة : هـذا فن

أجدادى ، فنظرت إلى كأنها تسألنى الإيضاح . قلت : ألم تزورى اسبانيا ؟ قالت : كلا قلت : وأنا مثلك ..

فابتسمت وعادت تنظر إلّى وهى تمزح : هل أنت اسبانى ؟ قلت : كلا . إذن مالأجدادك وهذا البناء ؟ فطربت لهذا الحوار الجميل .. وانطلقت أحدثها

« إن أجدادى ضربوا خيامهم فى رمال الصحراء وخرج منهم الأنبياء والرعاة المنشدون والفلاسفة والمفكرون ، ومنهم أيضاً الفنانون المبتكرون . أنظرى سيدتى إلى هذه العقود وإلى هذه الأعمدة وإلى هذه الشرفات ، هذا الفن العربى وجد قبل بناء هذا القصر بمئات السنين ولا تستكثرى سرقة الفن على قوم اجترأوا على سرقة رسول ، قالت : ولكنهم بدلوا فيه وغيروا .

قلت : نعم والفن فى نظر بعض النقاد تحايل ومهارة وأساسه الإقتباس .

قالت : وهل الكنيسة أيضاً مثل هذا القصر ؟

قلت : كلا ، إن قبابها السامقة تمت إلى كنيسة الحواريين المقدسة التى كانت بالقسطنطينية ولا أزيدك معرفة فهذان العمودان الرخاميان استحضرا أيضاً من القسطنطينية وركبا فى القرن العشرين . أما أولها فيحمل تمثال أسد "سان ماركو" المجنح ، أما الثانى فيحمل تمثال "سان تيودو" الجمهورى الڤينيسى وكان محارباً استشهد فى الحرب تحت لواء مكسيمليان .

فمضت فى مزاحها قائلة : عجباً ! ومن أين لك هذا الوصف الدقيق الشامل وأنت لمّا يمض عليك هاهنا ساعتان ؟ قلت : لا تعجبي أيتها الصديقة العزيزة فان فى العالم مفاتن رسمتها المطالعة فى هذه الذاكرة ! وفى ڤنيسيا الحمراء غنّى الشعراء وكتب الملهمون ؛ حتى فى هذا الأسد الضخم الرافع قبضته البرنزية إلى الأفق الهادى وفى هذا البحر الذى لاصياد فيه ... !

ولم أكد أتم كلمتى حتى صاح الصديق : إن الساعة الحادية عشرة ولم

نصل بعد إلى « الريالتو » ونحن ظماء ياصديقي إلى البيرة فأسرع بنا إذن ، وغداً تم حديثنا عن الرسول مرقس والفن العربي .

وسرنا نسأل هنا وهناك عن « بونت دى ريالتو » حتى وصلنا القنال العظيم وأخذ بأبصارنا الجسر المعلق عليه ، وفى الحق لم يكن بحثنا عنه ساعة كاملة ، ولا مسيرنا كل ذلك الوقت عبثاً ؛ فان هذا الجسر يعتبر من أعاجيب الهندسة التي تفرد بها « انتونيو دابونتي » عام ١٥٩٠

وصعدنا الدرج الواصل إلى منتصفه فإذا بنا وسط حان صغير انتثرت فى جوانبه موائد حمراء صغيرة ، صفت حولها المقاعد بأناقة وذوق فاتن فاخترنا مكانا ، وأقبل غلام الحان بابتسامته العريضة ، وما هى إلا دقائق حتى غصت المائدة بأقداح البيرة الكبيرة الفائرة الزبد ! وانطلقنا فى حديثنا عن مصر ، وأخرج الصديق بطاقته وقال : إذا شئت فاكتب لى عند عودتك وأعطنى عنوانك لأكتب إليك . فتأملت البطاقة وهتفت بالرجل : هل أنت حفيد السياسى العظيم « بلسودسكى » ؟ فضحكت السيدة حتى كادت تستلقى بكرسيها على الأرض وقهقه الرجل قائلا :

إنها مصادفة ! إنى أستاذ فى جامعة فرسوفيا .

ثم أفاض فى حديثه عن بولندا وتمنى لو زرتها معهم وتحدثنا عن الفن البولندى ، فذكرت له كيف التقيت بالمصورة الفنانة « أولجا بوزنانسكا » فى قصر السنيوريا بفلورنسا وأخذ هو يحدثنى بدوره عن مميزات فنها وعن مصور بولندى آخر هو الفنان « فالكاف باسكوفتش » الذى أحرز جوائز كثيرة فى معارض الفن الحديث ، والتفتت السيدة إلينا متململة وهى تتهكم علينا بقولها : ولم لاتتحدثان أيضاً عن تماثيل كوماتسفسكى . ؟ ألا تخلصان من حديث القصور والصور والمتاحف هذه الليلة؟ أيها الرجال هذه فنيسيا الحمراء !

قلت مداعباً : فلننصرف إذن إلى حديث الحب ومغامرات العشاق فى هذه المدينة ولنبدأ بهذا الشاعر الذى فرّ بعشيقته الشاعرة إليها ، أو فلنبدأ بحديثها فربما كانت هى التى فرّت به ... وربما كانا يجلسان مثلكما فوق هذا الجسر وإلى مثل هذا الخوان وفى هذا المكان ، وربما كان يجلس إليهما فى تلك الليالى الخالدة ، رجل مثلى غريب عنهما أيضاً .... فقهقه الرجل طرباً لهذه العبارات الموفقة ... أما هى فقد افتر ثغرها النضير عن ابتسامة مشرقة عذبة ؛ قالت : ليس فى هذه الأثارة ما يبهج ؛ وربما كان فيها ما يشجى ! فقد لقى هذا الشاعر المسكين من حب هذه الشاعرة ما لقى ، ولقد كانت امرأة عنيفة الأهواء ، جامحة النفس ، متقلبة ، كثيرة التنقل بين عشاقها فمن موسيقى إلى شاعر إلى طبيب .. ومن يدرى . ؟ ولكنه كان صادق الحب وكان خياله يلهب حبه وكان سعيداً بهذا الخيال فجاء مرضه فى هذه المدينة شؤماً عليه ...

وقال الرجل : ولكنكما نسيتما أشياء عن هذين العاشقين ، فلم تكن "جورج ساند" تحب فى موسيه ماتحبه المرأة المكتملة الأنوثة فى الرجل عادة ، إن الحياة التى اضطرب فيها قلبها قد سلبها ما ظنت أنها وجدته فى ربيب أبولون ؛ صورة وادعة ، وعريكة لينة ، وقلب ناضر ، وجانب رقيق ، ولكن الأنثى قد استيقظت فيها على صوت خشن غريب ، هو صوت الطبيب الذى يعود شاعرها المريض ؛ غير أن ذلك القلب الدامى الذى حرك الرحمة والحنان فى قلب العالم كان قد وقع نشيده وغنّاه ، وخلد فيه هواه وهو يهتف : لندعْ ساعة البرج فى قصر الدوج الهرم تعدّ عليه لياليه المسئمات ، ولنعدّ على ثغرك العاصى يا جميلتى هذه القبلات المغتفرة ! ...

وشاعت روح هذا الشعر فىنفوسنا وتملكتنا رغبة فى المرح فرفعنا أقداحنا

ومال الرجل على صاحبته وهو يقول : ألا تغنينا الآن ياعزيزتى شيئاً من ألحانك قالت : أى الألحان تريد ؟ قال لحنك الروسى المفضل ؛ فنظرت إلى الماء المتألق تحت الجسر وقد بدا نوتىٌّ يغنى فى جندوله البعيد فبدأت إنشادها :

لانجمَ ، لامصباحْ يلمع فى السهلِ قدنامت الأدواحْ مقرورةَ الظلِّ
مطمورةَ الأشباحْ فى مهدها الثلجى هذا شعاعٌ لاحْ يخفقُ فى وَهْجِ

...

الحارسُ السهرانْ قد فَتَّح البُرْجا يتلو على النيرانْ أغنيَّة الڤولجا
واللَّهب السكرانْ يرقصُ فى نارِهْ والنَّغمُ الفرحانْ يلهو بقيثارِهْ

...

أطلقتَ إنشادى يامن تغنيـــنى قيثارك الشادى حلوُ الأرانين
يدعو لميعادى ألحبَّ والأحلامْ ياحارس الوادى قد باحتْ الأنغامْ

...

هذا الفتى المراحْ قد أغلقَ البابا واللَّهب الوضَّاح من خلفهِ غابا
لانْجمَ ، لامصباحْ يلمعُ من بُعْدِ لاصوتَ، لاأشباحْ إنِّى هنا وحدى

...

يا أملَ العمرِ ياحُلُمَ العذراءْ
ياتوأمَ الفجـــر ياابن الصِّبا الوضَّاءْ
يامَلَكَ الحبِّ إنِّى لك الليله
فاطبَعْ على قلبي أو شفتى قُبْله !

وصفقت طرباً وإعجاباً بهذه الأغنية الجميلة وقلت . أهى من الأغانى الاثنتى عشرة للشاعر الكسندر بولك ؟ قالت : إنها من أغانى السهول القديمة ؛ ولعبت نشوة الراح برأس الصديق فأخـــذ يداعب امرأته بغير تحفظ فانصرفت عنهما إلى القنال موهماً إياهما إنى أتأمله ، ولاحظت السيدة ذلك ،

فتورد خداها وأخذت تدفع عنها الرجل النشـــوان وأدركت معنى عزوفى عنهما ، فبادرتنى هاتفة : أرى السيد غارقاً فى أفكاره ! !

فالتفت اليها باسماً وأنا أقول : أجل ياسيدتى ؟ أنى لا أزال أفكر فى الطريقة التى نسترد بها جثة الرسول مرقص ! فضحكت قائلة : ماعليك الآن من ذلك ورفعت قدحها وأشارت محيية به فرفعنا قدحينا ... ووقفت تنسق ثوبها وهى تقول : هيا بنا أيها الصديق فإن الليل قد جاوز منتصفه وفى الغد نعقد مؤتمرنا فى ميدان « سان ماركو » لننظر فى شكواك من البنادقة المجترئين على بلادك ، وهبطنا الدرج وسرنا وأنا أداعبها بقولى : « حذار ياسيدتى ! إذا لم نصل إلى نتيجة غداً فإنى سأنتقم للرسول مرقص من فنيسيا » ! !

فقالت فى دهشة : وكيف ذلك ؟

قلت : سأسرق حمامة مقدسة وأفر بها إلى مصر ؟

قالت ضاحكة : كما صنع أخ لك من قبل !

قلت : إنى أتكلم جاداً وسترين كيف أفر بهذه الحمامة ؟

قالت : ألى القاهرة الحمراء أيضاً ! أليس كذلك أيها الشاعر ؟

قلت : القاهرة الخضراء ياصديقتى وسأفرد لهـــذه الحمامة عشاً فى خميلة على ضفاف النيل ، فضحكت متممة : وجنة من جنات فرعون ! قلت : نعم جنة فيها من كل فاكهة زوجان .

وكأنما أدركت السيدة ما ترمى اليه دعابتى هذه فتمايلت من سكر الصبا وسحر الليـلة وسرت إلى جانبها والرجل يتعثر فى خطاه حتى وصلنا أول الميدان فاستندت إلى ذراعى وهى تقول : أرجو أن تسرع أيها الصديق قبل أن يأوى الحمـــام إلى أوكاره ولا تنس موعدنا غداً ، فحييتهما وافترقنا ، كل فى طريقه إلى مأواه .

فى ميدان إسدرا

هذه روما الخالدة تتأهب لاستقبال البعثة المنشوكية ، وكأنما غمرتها موجة من مباهج أيامها الخالية ، فحيثما سرت أعلام خافقة ، وثريات متألقة ، وقد ازدحمت أرصفة الشوارع والطرقات بالغادين والرائحين وهم يتطلعون إلى النوافذ الموشحة بأوراق الشجر وضفائر الورد ، أو إلى الفترينات المرصعة بألوان الثياب الزاهية ، والقطع الفنية الخلابة ؛ وكنت فى طريق إلى شارع الناسونالى وأنا أجتاز ميدان ڤينسيا محتشد الخواطر ، مفعم النفس بالأثر الفنى الرائع الذى أقيم إلى جانبه للجندى المجهول ، ذلك البناء الرخامى ذو الدرج العريض العالى ، يشرف عليه تمثال عمانويل الثانى وهو ممتط صهوة جواده ، وتحته أربعة من الجند الأحياء مسمرين فى أماكنهم حول إكليل كبير من الورد اليانع ، حتى لتخالهم جزءاً من هذا الأثر الرائع ، أو بعض تماثيله يستكمل بها رونقه ، ويستتم بها الفكرة التى رفع من أجلها للملك الجندى الباسل ؛ وكانت رفيقتى فى هذا اليوم الصحفية السويسرية « تنجلفدر » وقد استرعى انتباهها استغراقى فى تأملاتى ونحن ننحدر إلى شارع الناسونالى ؛ فشدت على يدى بلطف ، وهمست قائلة : « أفق يا صديق فإن للسير فى هذا الشارع نظاماً خاصاً » فنظرت إليها نظرة المفيق من حلم جميل ، فاستطردت قائلة : يجب أن نجتاز عرض الطريق إلى الرصيف المقابل حيث نندمج فى موكب العابرين إلى الميدان ، وعليك أن

تضع قدمك وأنت منتبه ، لأن السـيارات هنا لا أبواق لها » وترفقت ساعدى وسرنا حيث أشارت ، وغرقنا فى تيار متدفع من الناس ، نتسمع إلى لهجاتهم المختلفة ، فهؤلاء بقية من الإنجليز والأمريكان العائدين من الشرق فى طريقهم إلى باريس ، وأولئك طلائع الألمان الوافدين فى موسم العنب الذى تحتفل به إيطاليا كل عام احتفالها بأعيادها الوطنية والدينية ، وبين هؤلاء وأولئك الإيطاليون المرحون وهم يتأملون هذه الوجوه الغريبة التى لفحتها شمس إيطاليا السافرة ؛ قلت لصديقتى وأنا أحاورها : « ماذا أعددت لى من لجاءات البهجة والمرح ؟ » فأشارت إلى الأمام قائلة : « أنظر أيها الشاعر ، فهنا الليلة شعر ، وغناء ، وموسيقى » وكنا قد أشرفنا على ميدان إسدرا ، أبهج ميادين روما فى الليل ، ذلك الميدان الذى يرسم محيطه نصف دائرة يبلغ مداها مئات الأمتار ، ويحيط به بناءان متماثلان من الطراز الرومانى انتثرت المصابيح الكهربائية فى عقودهما الوسطى انتثاراً عجيبا ، فنى منتصف كل عقد مصباح من الحديد المشغول لا يختلف عن نظائره فى أرجاء الميدان ، والتفّتْ أنابيب الضوء الزئبقى حول الشرفات والمظلات خطوطاً أفقية وهّاجة أحالت الليل نهاراً ، وبدت النافورة الرائعة فى منتصفه ، وقد اثالت شآبيب مائها متلألئة تحت الأضواء العاكسة المختفية كأنها دهاليز من أشعة الشمس تمرق خلال الغمام الأبيض ، وهذه العقود المتشابكة بمصابيحها السوداء تخيل لك كأنك فى طريق « اللوفر » عند المساء ؛ وهذه النافورة تذكرك بنوافير ميدان الكونكورد ، ولكن أين هذه من تلك ! إن نافورة واحدة من نوافير الكونكورد ، لايتسع لها هذا الميدان الذى أراه الآن رحباً ، والذى أشعر بالغبطة وانشراح الخاطر كلما اجتزته عابراً ؛ واندفعت وصديقتى إلى أحد المشارب ، حيث الموسيقى الوترية المترجمـة عن أدق اهتزازات

العصب الإنسانى ، والمعبرة عن أرق ميوله وأحاسيسه !! خلصنا من زحام الواقفين المتسمعين وأخذنا مكاننا حول مائدة صغيرة ساقتنا الصدفة السعيدة إليها إذ لم يكن هناك غيرها خالياً من الموائد .

وانتهت الموسيقى من عزفها بين عاصفة من التصفيق المهذب المحبوب ، وقامت فتاة رشيقة فوق المنصة فنزعت لوحة لم أتبينها وعلقت لوحة جديدة ، ماكاد الجمهور يقرأ ماكتب عليها حتى اشرأبت أعناقه وتنصتت أسماعه ذلك أن عنوان اللحن « مدام بترفلاى موسيقى بللينى » وبدأت الموسيقى عزفها وسط ذلك الصمت الرهيب الذى لم تعكره صيحة بائع ، ولا بوق سيارة ، ولا بكاء طفل ، ولا نباح كلب ، ولا تهامس مستهتر !، نحن فى ميدان مفتوح يجتازه حولنا ألوف وألوف من الناس ومع هذا فلن تحس إلا ما أخبرتك به .

صورتْ لنا الألحان شتى أحلام وذكريات خلتها أطيافاً مرفرفة فى ذلك الجو السحرى البديع الذى يخلقه الفن القادر خلقاً ، ويعيده كيفما شاء ، حتى خلت أن الليل نفسه بدأ يزفر ، وأن النسمات الندية أقبلت من قمم الجبال والمروج البعيدة وحوافى الجداول ، لتسمع هى الأخرى صوت الطبيعة المتفجر بالسحر والجلال ، واختتمت الموسيقى عزفها ، والتفت المايسترو مواجهاً تلك القلوب الشاعرة والوجوه الشاكرة والأكف الثائرة...

وقامت الفتاة الأولى فنزعت اللوحة الصغيرة ، وعلقت لوحة جديدة تبينت اسم لحنها فاذا به « سونيا » تغنيه الآنسة "كارلوتا".

همست صديقتى السويسرية قائلة : هذا لحن رائع ، وأغنية عاطفية شاجية ! وأخذت تتمايل من الطرب ولمّا تبدأ الفتاة إنشادها ، وهنا ارتفع فى وسط المنصة عمود معدنى رفيع يحمل معجزة العصر الحديث ، معجزة اللاسلكى ، وصعدت فتاة ماكاد الجمهور يلمحها حتى دوت الأكف بالتصفيق هادرة صاخبة ،

كانت ذهبية الشعر ، وردية الوجه ، فى ثوب أبيض ناصع يحتكم فى جسمها احتكاما عجيباً ، لم يترك ثنيـة من ثناياه أو حنية من حناياه إلا أظهرها ، فأظهرنا بذلك على المعجزة الكبرى التى تتحـــدى كل معجزة ... المرأة ، أو معجزة الخلق .

وقفت الفتاة أمام الجهاز اللاقط تصلحه بيدها حتى استوى إزاء فمها الباسم ثم دارت فى الجالسين بعينين تستبدان بالغرائز ، وتستأثران بالمشاعر ، وترسّل صوت الأوتار رفيقاً ، رخياً . ناعماً ، وبدأت إنشادها وهى تضم يديها إلى صدرها الخافق ضماً حبيباً كلما اهتاج اللحن شجاها ، أو وافق هواها ، أو كلما أومأ لها الفن أن تصدع بما أمرها به ؛ هذه القيثارة الإلهية التى رُكِّبت فى لهاتها والتى أخذت تهتز تحت أنامل القدرة ، لم تدع للقياثير الصادحة حولها على صدور الشبان والشواب من أترابها صوتاً يشعرك بغير وجودها هى ، وغير غنائها الساحر ؛ اللهم إلا حين تسمو النبرة ، وتغلو العاطفة غلوها الفنى المقدر ، ويجأر « الفيلنشلو » بصوته الأجش الشجى ، فهنالك لا إنسان ولا إنسانة ، ولا عازفة ولا شادية ، ولكنها أرهام من السحر تسمع لوقعها على قلبك نقراً يستثير أجمل مشاعرك ، ويستخف أنبل خلائقك .

وانتهى برنامج الليلة وبدأ الخدم يدورون بالشراب على طلابه ، ويجمعون نقودهم ممن هموا بمغادرة المكان ، وأخذ عشاق الرقص فى ارتقاب الفتيات حيث يبدأ ليل جديد بين الكأس والمخاصرة فى أبهاء المكان .

وكانت صديقتى ، على رقة طبعها ودقة انتباهها ولطف إشارتها ، معنية بكتابة بعض خواطرها أو مذكراتها فى مفكرة صغيرة ، وكنت أرقبها باسما وما كادت ترفع وجهها حتى صاحت معتذرة عن انصرافها عنى بهـذا الشاغل البرىء ، وأخذت تجمع حقيبة يدها وهى تقول : هيا ياصديقى فأنت متعب

ولا شك... قلت : كلا والأمر على خلاف ذلك ، ولنا الآن أن نشرب قدحين من الأوروم ، وأن نتحدث فيما وعدتنى به هذا الصباح ، لأن طريقى غداً إلى « نابولى » كما تعلمين ! فأجابت وهى تغض من نظراتها : لقد غلبت حيائى هذا اليوم عند ما أرسلت لك بتحية الصباح مع خادمة غرفتك ، وحدثت نفسى : ماذا يقول هذا الرجل الغريب عنى ؛ ؟ وماذا يكون ظنه بى ! ؟ على أنك كنت وحيداً على مائدتك ، وكنت أنا وحدى أيضاً ، وكنت فاضلا عند ما شكرتنى ودعوتنى إلى زيارة كنيسة سان بيتر ، فانى كاثوليكية ولم يكن أحب إلى من زيارة هذا المعبد ، ولست صحفية بصحيح المعنى كما أخبرتك وإن لم أكذب عليك ، فانى أشتغل محررة خطابات فى بنك... وأراسل بعض الصحف والمجلات بما يهم قراءها من شئون المرأة فى الممالك والمدن التى أغشاها كل صيف وقد جهزت أمس لشقيقتى - رغم الخلاف الذى بينى وبين أسرتى البروتستانتية - هدية جميلة بمناسبة زفافها الذى يتم هذا الأسبوع ، وعلىَّ أن أرسلها غداً ، وقد أعددت لها عرضاً جميلا فى غرفتى فقم بنا الآن إلى الفندق حتى أقف على رأيك فى هذه الهدية ، فإن ملاحظاتك تعجبنى . . . قلت : أوليس لك رغبة فى القدح الأخير ؟ . فربتّت على كتفى وهى تقول : أتريد أن تحتال على تكوين رأى جميل بهـــذا الشراب ؟ قلت : إنى رجل متضارب الآراء لا أستقر على حال والمرأة تزيد فى حيرتى إذا وكلت إلى بأمورها وإنما يشجعنى الشراب على البت فى شؤون النساء فانهن بارعات فى إنتحال العيوب ، لاذعات النقد يتطلبن من الرجل السداد والكمال فى كل شىء... قالت : كفى مزاحاً أيها الشاعر وسأبادلك النخب على أن يكون القدح الأخير ، وأفرغنا قدحينا نهلة واحدة ونهضت واقفة وهى تقول : هلم يا صديقى ؛ فمشيت إلى جانبها وهى متكئة على ذراعى ونفسى تحدثنى بأمرها ، وسألتها : وهل شقيقتك ياصديقتى

أكبر منك سناً ؟ قالت : بلى ! إنها شقيقتي الوحيدة ، فاستطردت قائلا : أو ليس لك خطيب؟ فاصطبغ وجهها حياء وتعثرت لفظة بين شفتيهـــــا ، قلت : « معذرة فما أردت إلا الحديث ، قالت : ياصديقى لست تعرفنى كل المعرفة فأحدثك طويلا عن حياتى ، ولا علىّ أن أخبرك إن زفافى أيضاً كاد يكون هذا الأسبوع لو لم أفسد حياتى بالصراحة ، لأنى لم أكن خبيثة يوماً ما قلت : معنى ذلك أن الرجل أفسد حياتك ! فابتسمت قائلة : ليس من حقك أن تعرف أكثر من هذا ، وإن كان من حقى أنا أن أخبرك ، بيد أنى أختصر الحديث اختصاراً ، فأقول لك إنك تحمل صورة الرجل المتفتح القلب ، فاذا أحببت يوماً فاحذر أن تقول لعذرائك إنك تحبها ، كن غامضاً فان لذة الحب فى الشعور المبهم ، لقد قلت يوماً للرجل : إنى أحبك ، فتقلص حبه سريعاً ، وزايله اندفاعه نحوى ، وفارقنى عطفه ، واستحال مخلوقاً آخر يستغل عاطفتى ، ومنذ هذه اللحظة وأنا أخاف الرجل ، الرجل الذى يريد أن ينتزع من أفواه العذارى كلمة « أحبك » ... وكنا قد وصلنا إلى الفندق ...

يوم في فرساي

ما أجمل الصباح ، وأرق نسماته . وأصفى سماءه ، بهذا كنت أحدث نفسى وأنا أنحدر من شارع غاليلى إلى الشانزليزيه العظيم ؛ متذكراً وقفتى منه منذ أيام وأنا أستعرض جماله من قمة قوس النصر ذى الشعلة الخالدة اللهب ، هذا البناء الضخم متوســطاً ميدان النجمة ، تمثّلتهُ فى هـذه اللحظة فريسة وقعت فى خيوط عنكبوت جبار ، امتدت من أركان مدينة خيالية ، وكأن الشعلة الخافقة اللهب ، روح الفريسة المضطربة تتحدى المصرع ، وتعلن عن قوة الحياة المشبوبة المضطرمة ؛ كم من مساء فاتن فى باريس ، وكم من ليلة ساحرة ، وكم من صباح جميل عذب كهذا الصباح ، يحبب إليك مصالحة النور والنسيم ، عارى الرأس ، خفيف القدم ، وأنت تعبر الشانزليزيه والكونكورد والتويلرى حتى اللوفر ، الذى احتقب كنوز الأمم ، أو إذا جنحت بك النفس ، فعطفت من الكونكورد على المادلين وسان ميشيل وحدائق اللوكسمبرج وانسربت بعدها فى أبهاء الحى اللاتينى لتستعيد بعض ذكريات جميلة حملتها من مطالعاتك لكتاب وشعراء وفنانين مرحين ، ماجنين ، عابثين ، استقامت بمرحهم ومجانتهم وعبثهم ، حياة جادة مذخورة بالأدب الحى ، والفن المشرق العالى .

لو سلفت لى حياة فى هذه الأماكن المعطرة بروح القدم ، لاستغرقتنى الذكريات ، ولكنى رجل حائر قلق ، تطالعنى الصور من هنا ومن هناك فألحظها بالنظرة العابرة والتأملات الخاطفة ، وسرعان ما أعود إلى نفسى ،

لأسكن إلى طبيعة هادئة ، أفكر فيما أنا مقبل عليه فى يومى من عمل أو لهو ، ولست رجل مغامرات ، ولكن الأقدار تأبى إلا أن تضع فى طريقى أينما سرت حادثاً غريباً ، وشاغلا عجيباً ، وعبثاً أحاول أن أكون الهادىء الناعم البال ، وكل ما فى هذه المدينة يتآمر عليَّ ، شدَّ مايُشقى الخيالُ أصحابه ... فإن كل حجر من أحجار الطريق ، وكل ورقة صفراء تنتفض فى يد الريح الهبوب ، وكل نافذة يضطرب وراء زجاجها النور ، وكل مقعد خشبي منتبذ بالظلام تحت أشباح الشجر السوداء ، يغريه بالاندفاع ، ويدعوه إلى المرح ، ويصرخ به إن الحياة فى باريس للمتمرد الخطير ، والمتشرد الكبير ، فماذا عليك وأنت هنا طليق من أسر العادات واصطناع الوقار ، لو عببت من هذه العيون الدافقة وتخففت من ثيابك ، وقذفت بنفسك فى هذا المضطرب الساحر ! أقتحم هذا الجو العاصف بالشهوات ، وأنظر من وراء هذا الزجاج ، فإن الضوء الضعيف المترقرق فى أوكار مونبارناس يؤكد لك أن حياة القوم هنا ليست حساً محضاً ولا جسدية مطلقة ... وأن الخمر التى تعاقرها فى الكوبول تحدرت من أكرم اعصاب الحياة ؛ وليست من حدائق الرين وكروم الجنوب ... وهذه الأجساد العارية فى التابوران واسفينكس ، والهومير . والفولى برجير ، هى أسمى ماوصل اليه الفن الآلهىّ تمثيلا وتصويراً ، وهى فى طريقك غداً تماثيل وتصاوير يقسرك السحر المودع فيها على التطلع إليها واكتناه سرها العظيم ... وإن نبأة صوت تصل إلى أذنك وأنت تجتاز القندوم فى هدأة الليل ، وحركة سيارة تقف إزاءك فى الحلك القاتم ، فإذا بك مندفع نحوها ، وإذا صوت رقيق يسألك عود ثقاب ، ويد مرتعشة ترفع سيجارة إلى فم رقيق باسم ، وعينان شاخصتان إلى وجهك ، فاذا ما أضاء الثقاب ، وامتدت يدك ، واقترب وجهك ، أحسست هذه الرغبات التى تتجاوب بها الأدغال فى أول فجر للربيع !

فى هذا المكان ، وهذا الظلام الرهيب ، وهذا الغموض ، وهذا الحنين المبهم الذى يتنازع كائنين غريبين . المجهولُ أيها الشاعر ، أروعُ وأغلى ماتبحث عنه فى حياتك من كنوز ...

وهكذا سرت أحاور نفسى ، وأنا أتصفح وجوه الباريسيات المبكرات إلى عملهن ، وهن يتخطرن فوق الأرصفــــة وفى عيونهن من أسرار الليـل الذاهب ألق ، وفى شعورهن من خمر المساء الغابر عبق ، وكنت على موعد ، وما هى إلا دقائق حتى كنت أشرب القهوة الفرنسية اللذيذة على إحدى موائد «كافيه دلابيه» ملتقى الغرباء من أبناء الشرقين الأدنى والأقصى . وكان شريكى فى المائدة شاب أنيق البزة ، حسن الوجه ، عرفت منه إنه سورى ولد بالاسكندرية وإنه يشتغل بتنظيم بعض الرحـــلات فى باريس وضواحيها ، وتحدثنا عن ذلك ودعانى الى الاشتراك فى رحلة تمتعنى بحظ وافر من البهجة . قلت له : لقد رأيت كل شىء . قال : ولكنك لم تقرأ البرنامج ، ودفع إلى ببضع ورقات وأشار بأصبعه إلى إحداها . قلت : لقد زرت فرساى وعرجت على ملمازون وانتهيت إلى فونتنبلو ... قال : ولكنها حفلة مساء فى حدائق فرساى الفاتنة ، موسيقى ورقص أكروباتيك على الأضواء المختلفة الألوان وأسهم من نار وكانت هذه آخر حفلات الموسم ، فوافقته على رأيه وفى الميعاد المحدد كنت فى السيارة المختارة سيارة المتكلمين الانجليزية ، ودرجت بنا فى طريق ضاحية «سان كلو» التى حفل بذكرها القصص الفرنسى ، وشاءت الصدفة أن يكون معنا هذا الشاب السورى المرح ، فأخذ يمزح مع الركاب بلهجة انجليزية فكهة ، وهو ينظر إلى من حين إلى حين باسماً ، كأنما يحفزنى إلى مساجلته ، ولكن هذا الخبيث كان قد أعد شيئاً فى طوايا نفسه ، فوقف وسط السيارة خطيباً وهو يقول : « سادتى : هنا جنتلمان مصرى غريب مثلكم ، يتكلم الانجليزية ،

وقد لاحظت عليه انفراده بينكم ، وكلكم أزواج تتسلون وتضحكون ، فمن دواعى سرورنا لجماعة تعنى بتوفير مباهجكم ، أن يكون له حظ مشاطرتكم سمركم وحديثكم . » انطلقت كلمات هذا الشاب كأنها أنباء خطيرة يتسمعها قوم معنيون بها ، وشخصت العيون إلىَّ ، السيدات يبتسمن ويغمغمن علامة المجاملة والتحية ، والرجال ينظرون ويشيرون بأصابعهم على الطريقة الفاشستية ، والآنسات أين هن ؟ ! هناك وجهان يشرقان بنضارة الصبا ، ويتلظيان صحة وعافية . يتوسطهما وجه سيدة كريمة لمَّا تفارقه وسامته وقسامته . عرفتهن فيما بعد . فهذه السيدة دينماركية من كوبنهاجن . وهاتان ابنتاها . وهما كأمهما من الفتنة والخفَّة ورقة الجانب وعذوبة النفس على قدر عظيم . وددت لو شكرت هذا الخبيث على ماصنع ؛ فإن سحر أوروبا ليس ببالغ من نفسك أثره إلا فى ظل صديقة تشاطرك غدوك ورواحك ، أو تقاسمك مائدتك ، أو تبادلك حديثها ، أو يناسم عطفها قلبك ؛ ورحت من طربى أشعل سيجارة وأنا أتأمل مفاتن الطبيعة من زجاج السيارة . وإذا بيد تربِّت على كتفى . فالتفتُّ أرى ماهنالك ... فوجدت سيداً أمريكياً يسألنى عود ثقاب ... وأدنيت الثقاب منه فأشار إلى جانبه ، فاذا سيده مشيقة ، ناضرة العمر ، أنيقة ، ضاحكة الوجه ، صففت شعرها على طريقة القرن الثامن عشر ، وقصت جانبيه على طريقة القرن العشرين ؛ عيناها العسليتان يشرق فى كل منهما قبس من السحر فى إنسانين ضارعين ، كأنها طفلة إلهية هبطت لأول مرة عالم الأرض ؛ كانت يدى المرتجفة تدنى لهب الثقاب من سيجارتها وعيناها لاتفارقان وجهى كأنهما بوغتتا برؤية مخلوق غريب لاعهد لها به ، واضطربت روحى تحت نظراتها وأنطلقت صيحات مجهولة شريرة تصرخ من أعماق إنها ... إنها المرأة المنتظرة ... وفرَّت هذه الأشباح والأصداء على صوت السيارة وهى تقف على أبواب فرساى ؛ وجزنا

أسوار القصر ودخلنا ردهته وكانت لاتزال إلى جانبي. وكان الزحام عظيما جداً حتى لايكاد يعرف الإنسان من أين يمضى وإلى أين يتجه، وصاح الدليل بنا أن نحرص على متابعته، وألا نبطىء فى ذلك وإلا ضللنا طريقنا فى أبهاء القصر وهيهات إلى أن نهتدى من سبيل؛ واندفعنا إلى الحجرات تتملى جمالها، ونتحسس بأبصارنا المبهورة روعة النقوش، ودقة الرسوم، والدليل يروى من أنباء القوم وأسرار حياتهم فى هذا القصر المنيف ما يشبه الأساطير، أين لويس الرابع عشر؟ وأين سمياه العظيمان من بعده؟ وأين ابن الثورة التى عقها؟ أين أولئك الذين مرحوا فى هذه الحجرات، وطالعوا الأمل واليأس من هذه الشرفات!؟ كل ما فى القصر ينطق بالنعيم الزائل والسلطان المندثر، جدران تكاد لاتعرف فيها أثرها اليد الصناع المقتدرة، وصور يذهب الخيال بين الظل والنور فيها، وسقوف موجت صفحاتها بالنقوش وموهت حواشيها بالذهب، كأنها لجة ضربت فى شفقين ملتهبين ما بين المشرق والمغرب، وجزنا عتبة الباب العاشر إلى صالة المرايا الكبرى، وانتثرنا فى أرجائها نصوب العين حيناً، ونصعدها حيناً آخر، وننقل خطانا على ريث، نستعرض ذكرياتها ونتأمل ما أسبغ التاريخ عليها من جلال وخطر، ياللقدر الساخر والزمن الوثاب!! كم مرت بهذه المرايا أشباح طواها الموت، وتطلعت وجوه زواها التراب وأشرقت ابتسامات أطفأها القدر، ولم يبق إلا صـــوت يقول إنى أشم رائحة الدم!!

خلصت من مآسى هذه الحجرة إلى حجرة المرأة الطفلة، إلى اللاهية العابثة، هذه صورتها معلقة فى مكانها كما نقلت عن الأصل المودع فى متحف روما، وهذا تمثالها النصفى، ورأسها المترفع الجميل، تياهاً بعنقها المرمرى الرقيق الذى حزه الفولاذ القاسى، بين الضحك والاستهزاء، أو بين الحقد

والبغضاء ، يالّلأسى ! كنا نمر في الحجرات والمخادع التى داسها بقدميه اليائس المحروم ، واقتحمها الناقم الغضوب ، إنه ثأر لإنسانيته ؛ كان شــعورى ذاك الذى صورته لك وأنا أضطرب فى هذه الحجرة المشؤومة التى احتفظت ببعض أثاثها ، حجرة مارى انتوانيت ! جئت لأتسلى ساعة من زمن فأعقبتنى مسلاتى حزناً وندماً ، وأورثتنى إشفاقاً وألمــــاً ، وهممت بالهرب من هذا الجو ، فألقيت نظرة الوداع على وجهها الباسم ، وملت عنها إلى النافذة العريضة أتأمل الحدائق التى تملأ الأفق ، فالتقت نظراتنا . . . . كانت هى أيضاً تنظر من النافذة القريبة ؛ كنت أظنها بعيدة عنى . . وكنت أحسبنى منفرداً بنفسى ، ولكنها هى . . حيث وقفت بها الأقدار على قيد خطوتين منى ، باسمة مشرقة الوجه ، ملتهبة الخدين بما تحيَّر فيهما من ماء الشباب ، كنت أجدها دائماً إلى جانبي والجماعة تضغطنا ضغطاً كلما جزنا باباً ، أو عبرنا دهليزاً ، أو اجتمعنا حول صورة نتملاها ، أو أثر ثمين نتحراه ، وعبثاً حاولت ألا يمس ثوبى ثوبها أو يمر ظلى بظلها ، فقد كنت مأخوذاً بها وكان جمالها خطراً لا يستطاع دفعه أو توقِّيه ، وكان رجلها ولا شك يعرفها أكثر منى ، فكان يرمقنى من حين إلى حين بنظر صارم حديد ، حتى خُيِّل لى أنى مطارد يلاحقه خوف ، أو هارب يتأثره حتف ؛ ولكن هذه الملكة المسكينة كما جنت على زوجها جنت علىَّ . . . والتفتت إلىَّ قائلة : خسارة فادحة أن تفقد هذه الحجرات أثاثها وأن تعرَّى من رياشها ! قلت : أن الثورة لاعقل لها فهى بنت العاطفة الشرهة الهائجة ، وقد أكلت فى طريقها ما صادفته . . قالت : أعرف ذلك ؛ ولم تكد تتم عبارتها حتى أقبل الرجل . . ومشينا معاً إلى خارج القصر ونحن نتنـدر بما كان من أهله ، وأى عدوى من الترف الفاجر قد أصابت خدمه حتى أورثتهم شر أمراض الاستهتار

فكانوا يقذفون بالقدر من النوافذ بلا حرج وبلا وازع ، وكيف أن طرق التدفئة جميعها قد عجزت عن إرضاء الأميرات والوصيفات والخليلات والمضيفات فى الشتاء القارس ، فكن يستلقين على الأرائك الوثيرة متأطرات على فوهات المدافىء المتنقلة ، مشمرات عن سوقهنّ، نصف عاريات ، لينعمن بالدفء ويعرضن أجسامهن للحرارة بينما تستغرقهن الأحاديث اللذيذة والأسمار العذبة ؛ وكان طربها بهذا الحديث شديداً فألقت : سؤالا غريباً قالت : أشيِّد قصر فونتنبلو لمارى أنتوانيت ؟ فلم أحر جواباً ، ودس الرجل يده فى جيبه فأخرج كتاباً صغيراً قلَّب فيه بضع صفحات وهو يغمغم بأنفه ، وأقامت فيه مدام دى بارى ؛ . . فهتفتْ مازحة وهنَّ مشيداتُ القصور ! قلت : مافى ذلك غرابة ولا هو بمستكثر عليهن ؛ فاسترسلت فى مزاحها قائلة : ومن تعنى ؟ فتدخل الرجل قائلا يعنى الجميلات الفاتنات ؛ وكأنما أراد بهذه العبارة أن يشعرنى بوجوده ، فاندفعت قائلا : وفيهن خيِّرات فاضلات ، وإن أنس ياسيدتى . فلن أنس ذلك القلب المودع فى صندوق على رفرف الانفليد . قلب المرأة التى شاركت چيروم حياته أملا وألما . فأوصت بأن يرفرف قلبها على قبر زوجها . حقاً لقد كان چيروم عظيما كشقيقه نابليون .

وانصرفنا إلى حديث الفنّ فسألتنى أرأيت أروع وأفخم من هذا القصر وحدائقه الغناء ؟

فأجبتها قائلا : ليس للفخامة ولا للضخامة حساب كبير فى رأى الفن الحديث ، فان للرشاقة جمالا ، وللبساطة روعة ، وهذا الطابع المعمارى نراه فى كثير من قصور أوروبا ، بله فرنسا وليس غريباً على فونتنبلو واللوفر والتريانون والباليه رويال والانفليد أيضاً ، وانت ترين الصور والنقوش المزدانة بها تلك الحجرات وكأنما استعيرت من بعضها البعض وان شئت فهى من بلاد غير

بعيدة ، فى قصر السنيوريا بفلورنسا ، وقصر الدوج بالبندقية ، ولا أحدثك عن الفاتيكان وروائعه ، أما هذه العمد الضخمة والرفارف العريضة المطلة من فوقها فهى من بلاد أخرى غير بعيدة أيضاً ، وقد أخذ الفرنسيون عن الفن الرومانىّ أجمله وأبدعه ، وأخذوا عن الفن الاغريقى أرشقه وأروعه .

قالت : وهناك أيضا بلاد غير بعيدة عن روما وأثينا ، وعنها أخذ العالم أرفع الفنون ؛ قلت : بل لا يزال يأخذ عنها ياسيدتى ! فابتسمت قائلة : ومن أنبأك أنها بلادك ؟.. قلت : فى إشارتك اللطيفة مايغنى ياسيدتى ، ومصر تحمد لك هذا الاعتراف بلسان أحد أبنائها ؛ فبدت على وجهها علائم بهجة خفية وهى تنظر إلى ذوائب الأشجار السابحة فى لجة الشفق الأحمر وكنا قد وصلنا إلى تمثال فاتن يمثل فتاة عارية تسبح فى الماء .

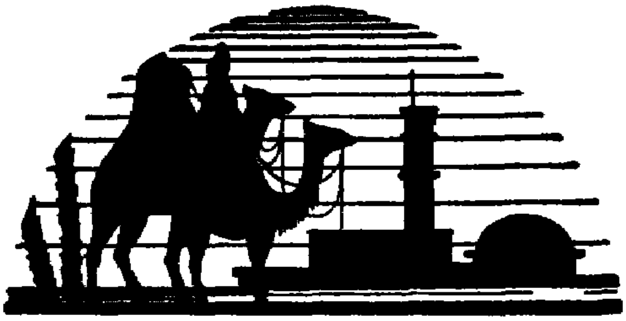
فسألتنى قائلة : أيعجبك هذا التمثال ؟ فأجبتها بل ويكاد يفتننى ، قالت : وماسر إعجابك ، قلت : هذه الحياة التى تكاد تدبُّ فيه ، بل هذا الجسد الفاتن وإن صيغ من جماد هامد ! قالت : ولماذا خلا فنكم القديم من هذا اللون ؛ قلت : تعنين الأجساد العارية ؛ قالت : بلى ، قلت كان ذلك خضوعاً ولا شك لروح الديانة ، وأنت تعرفين أن الفراعنة وهم أبناء الآلهة قد خضعوا فى حياتهم وحكمهم للكهنة وطقوسهم ، فكيف بالفنانين وهم من أبناء الشعب الذين كانوا ولا رأى ولا سلطان لهم . ولا عجب فى أن يتأثر كل شىء فى هذا البلد بروح الديانات فمنه استمدت الشرائع جميعها هذه الطقوس التى نقرأها ولقد كان المصريون القدماء أعلا بصراً بالحياة وأسمى بالروحانيات دنيا ،! بيد أنى أحب أن ألقى ضوءاً على هذه الناحية فأنت ولا شك قد زرت مصر ! قالت : وأتمنى عودة إليها من جديد ، وحياة طويلة على ضفاف نيلها ، بين رمال صحرائها وأشباح نخيلها ؛ قلت : وهل زرت الأقصر ؟ قالت : وعرفت سر

القرود في مقبرة توت عنخ آمون ....

قلت : وهل رأيت ذلك « الكاباريه » في مقبرة « تَخْتْ » ؟ قالت : ورأيت « الأرتست » العاريات قلت : حسناً ؛ فهذه المقبرة صورة من الرغبات المكبوتة التي كانت تضطرب تحت ضغط الكهنة ؛ فقد حرموا على الفنانين تمثيل الأجساد العارية ! ومما أذكره أنَّ فنَّاناً حُرّاً لم يطق صبراً على هذا الحرمان فصنع تمثالا عارياً صغيراً ، ولكنه خشي العاقبة فتخلص منه بإلقائه في مقبرة الأميرة « تِسِنْ » التي اكتشفت منذ أعوام في حرم الأهرام ؛ وقد رأيت هذا التمثال غير متقن الصنع ، نتيجة الاضطراب الذي يطوف بأفكار الثوار ويظهر أثره في أعمالهم ، ولكن هناك ياسيدتي أمراً آخر مرجعه النفس ، فان للأجواء أثرها الغالب في تكوين الميول وصقل الأذواق كأثرها في تكوين الأجسام . وفي ذلك الجو المصري السافر الذي يكاد يروع البصر إشراقه ، حتى لتعظم فيه دقائق التركيب وتبرز خفايا الصنع ، في مثل ذلك الجو تنزع النفس إلى شيء من الحجاب ، وتحـــاول إخفاء بعض النواحي المكشوفة المفضوحة ، إنها اللاشورة الفنية التي تؤثر الغموض والإبهام أحياناً وهذا على العكس من الأجواء الاوروبية المحجبة القاتمة التي يختنق فيها البصر ، فإنها تقتضي الكشف وتلزم السفور ، ومن هذا ترين ياسيدتي أن للفنان المصري نصيبه من الاحساس الفني بالجمال ، وقدره الرفيع من التعبير عنه .

وكنت أتكلم بحماسة واندفاع بالغين كأنني أنشد قصيدة من ذات نفسي ، وكنت ألمح إعجاب السيدة ورضاء الرجل وانتهى مطافنا إلى المطعم القريب فتناولنا عشاء شهياً وأقبل المساء ...... وانتهى الليل بانتهاء حفلة عيد الحرية في حدائق فرساي ... وطلع علينا الفجر والسيارة تجتاز بنا غابة بولونيا بين سقسقة العصافير وتغريد العنادل .

وبعد أيام ، وقفت أتأمل أنوار باريس الباهرة وأنا واقف فى ممر العربة والقطار ينهب بنا الطريق إلى لوزان فإذا بصوت عذب ، ووجه ساحر أعرفه ، وابتسامة تومض بها شفتان ، ويد غضة ترفع سيجارة إلى فم رقيق ... وهى تضحك وكأنها تذكرنى بأول ثقاب أشعلته لها ...ورحت أتنسم عطر دخانها وقد همت بالانصراف وهى تقول : أرجو لك سفراً سعيداً ولعلك ذاكرى يوما فى مغرب شمس على ضفاف النيـــل ، أو فى أمسية من أمسياتك المصرية المرحة . ومدت يدها إلى يدى مودعة ، فرفعتها إلى فمى وانحنيت أطبع عليها بقية القبلة وقد انزلقت شفتى الجافة على بشرتها الناعمة ... ووقفت أرقبها وأنا أكاد أنوء بالسِّر العظيم وقد بدأ خيالها يختفى فى الممر الطويل وهى فى زيها البديع ومشيتها الساحرة .



فتاة برن

كانت غرفة الطعام هادئة النور ، لا تنبعث فى فضائها أضواء هذه المصابيح الصغيرة ذات الألوان البهجة التى كانت تزدهر بها الموائد البيضاء كل أمسية ؛ حتى لتبدو كأنها حديقة مثالية تضىء مجامر وردها فى ليلة شرقية قمراء ؛ ولم يكن غير خوان صغير فى صدر المكان يجلس إليه ضابط شيخ ، وهو يشرب قدحا كبيراً من النبيذ الأحمر على مهل وفى تأمل هادىء عميق ؛ وكنت جالساً إزاءه تحت الشرفة العريضة أرقب الكنيسة القوطية ذات البرج السامق الذى طالما أصغيت إلى رنات نواقيسه فى أصباح يوليو المائجة بالنور ، الناسمة بالعطر ، وكان السكون يفيض على هذا المساء فليس إلا صوت المطر المنهمر فى الخارج ، وهذه الأصداء التى ترسلها إلينا من الميدان عجلات السيارات المخوِّضة فى المياه الدافقة تحت الأفاريز ، وأولئك العابرون بخطاهم القوية المتزنة على أحجار الطريق ؛ واستغرقتنى ذكريات الأيام الأولى التى قضيتها فى هذه العاصمة الجميلة وأنا آخذ الطريق الصاعد إلى " الجورتن " فى الضفة الثانية من النهر ، أو أهبط المنحدر الفاتن إلى المتحف التاريخى ، أتملى نفائسه وبينها تحف شرقية جميلة معروضة فى بعض غرفه . فهذه الأوانى الخزفية ، المزدانة بالآيات والحكم العربية ، وهذا الأيوان الخشبى من القرن العاشر الهجرى بطنافسه وزخارفه المموهة بالذهب ، وهذا المخطوط من القرآن الكريم بنقوشه الفارسية الدقيقة ، وهذه المجموعة من أزياء الحريم فى الشرق

الإسلامى من الشنتيان إلى الحبرة إلى اليشمك ، ثم هذه الروائع الأخرى التى تعجب الفنان ، وتجذب الشاعر ، وتفتن الأديب ، وبينها نسخة من الطبعة الأولى لرواية « تليماك » بورقها الكتانى السميك الكبير الحجم ، وطباعتها ذات اللونين الأسود والأحمر ، بالحروف الجرمانية الشجراء ، وإلى جانبها آلة الطباعة الأول لجوتنبرج .

واستغرقتنى هذه الصور لحظات ولحظات حتى انتبهت على صوت الضابط وهو يغادر المكان فى بزته العسكرية الأنيقة ويلقى بتحيته إلىَّ بادئَ العظمة ، موفور المهابة !.

وأقبلت الخادمة الشابة وهى تقول :

يؤسفنى أيها السيد أن تظل وحدك فى هذا المكان ولكن ربما حضرت مس " كارين " هذه الليلة فهى قد علمت بحضورك الآن ! قلت : شكراً يا آنسة ، ومن ترى ذلك السيد ! ألا يبيت الليلة هنا ؟ قالت : إنه قادم من « سانت جالن » فى طريقه إلى الحدود وهو فى انتظار فرقته التى تصل إلى « برن » بقطار نصف الليل ! .

قلت : وهل تقومين وحدك بشؤون الفندق هذه الليلة ؟

قالت : لقد ذهبت الفتيات ليدبرن أمورهن قبل رحيل الرجال ، حتى مسز ڤايل أيضاً ... فإن زوجها يغادر المدينة بعد ساعتين لينضم إلى فرقته فى « بازل » ، وأنت تعلم أن الشبان قد ذهبوا إلى صفوف الجيش بعد أن أعلنت التعبئة العامة هذا المساء .

قلت : أرجو أن يعودوا قريباً إلى أهلهم وديارهم وأحبابهم ، وأحب ألّا تجهدى نفسك من أجلى ، فكل ما أطمع فيه فراش أتوسده هذه الساعات الباقية من الليل .

قالت : لاعليك أيها السيد فان مس "كارين" قد حدثتني عنك وليطب خاطرك ؛

قلت : أخشى أن يكون وجودى الآن قد شغلك عن أداء واجب عزيز . . . فتورد وجهها وهى تميل إلى الباب دون أن تجيب ؛ ورحتُ أسائل نفسى أليس لهذه الفتاة الوسيمة أليف تبتهج لمرآه أو يخفق قلبها بنجواه أو ليس من ينتظر قبلتها أو عناقها أمام عربة القطار فى هذا الليل وتحت هذا المطر ؟ ... وانطلق الخيال يخلق من الوهم الطارىء قصة حب عاثر أو حبيب غادر ؛ ولاح لى فى هذه اللحظة خيال "كارين" هذه الشابة الحسناء التى تبذ العذارى رقة وخفراً ، إنها فى الثانية والعشرين من عمرها ، تؤمن بالسحر المصرى القديم ، وتكلف بحديث الحريم فى الشرق ، وتثق بطوالع النجوم ، وتصدق قراءة الكف ، وتسأل عن المستقبل وتبحث عن الحب والرجل المنتظر ! إنها تثق بآرائى وتندفع فى حماسة إلى حديث الفن بلهجة انجليزية حلوة جذابة قلما سمعت مثل موسيقاها من أفواه الانجليزيات أنفسهن ؛ وكنت أعجب لهذه الشابة الذكية القلب المشرقة الروح التى قضت شطراً من عمرها الباكر فى بيئات الانجليز الخاصة وتحت سماء انجلترا كيف تسلم عقليتها بهذه الخرافات وتعلق بنفسها هذه المعتقدات المضحكة ! وتمثلتها على مكتبها وهى تراجع حساب الفندق وكلما أجهدها الفكر مرّت بالقلم على فمها القرمزى الصغير ، وهى بشعرها الكستنائى المنفوش وعينيها الرماديتين ووجنتيها البارزتين كشاعرة نبيلة بهرتها رؤى علوية طافرة ، أو سحرتها أنغام قدسية عاطرة ! وذكرت اليوم الأول الذى التقينا فيه على الباخرة الصغيرة بين « انترلاكن وتون » وهى متكئة على حاجز السفينة ترقب الرغو الفائر تحت قدميها ، وقد امتد خطوطاً عريضة طويلة والهواء يرفع جانبى معطفها الحريرى الأبيض الهفهاف إلى مافوق ذراعيها فكأنها ملك السحاب يضرب

بجناحيه الناصعين فى الزرقة الصافية متقدماً رعيلا من الغمام الأبيض ! وتحدثنا فى براءة روحين متجردين من نوازع الدنيا ومنازعها عن ذلك الجو الشعرى الفاتن ؛ وكانت خيالية مفتونة بالصور والألوان والأنغام والأصداء فوجدت فىّ صاحبها الموافق ، ورفيقها المجاوب ، وتكلمنا عن الثلوج فى قمة چوفراو ، وجبال الألب الداكنة السوداء ، كما تبدو من هذه الغابة الصادحة عند منابع الرون بين حـــدود سويسرا وفرنسا ، وأنشدتنى مقطوعة للشاعر الأسبانى "جوستانو بيلكور" عن ڤيلا «كارلوتا» على شاطىء بحيرة كومو وعقدنا مقارنة بين البحيرات السويسرية والايطالية ومساقط الماء فى جبال إنسبروك ومنابع الرين وتحدثنا عن الصحراء والبحيرات الافريقية والنيل المقدس ، ثم أسمعتنى أبياتاً للشاعر الانجليزى "جون كيتس" يخاطب فيها «النيل» بقوله : يا ابن جبال القمر الافريقية العريقة فى القدم ! يا وادى الأهرامات والتماسيح ! وقالت إنها كانت تظن سكان ذلك النهر المقدس من العمالقة وأن لهم مثل أجسام التماسيح ضخامة ومثل فهود الأدغال قوّة وضراوة .

وانتهى بنا المطاف إلى هذا الفندق الذى تديره خالتها مسز ڤايل ، هذه المرأة المتشككة ، ذات الوجه الجامد الذى لاينم عن عاطفـــة ولا يختلج بإثارة ما ، وكانت ترى فى علاقتى بابنـة أخيها ما لا يروقها ، وكانت تقابل بالامتعاض ابتهاج الفتاة بلقائى وبالتحدث إلى ، ولا أنسى هـذه الليـلة منذ أربعين يوماً وكـنت منـكباً على خرائط لبعض ممالك أوروبا أقرأ أسماء البلدان والعواصم وأرسم بالحبر الأزرق خطاً طويلا متعرجاً أبين به طريق صاعداً من مارسيليا إلى كوبنهاجن وهابطاً إلى برلين ففارسـوفيا فڤينا إلى نابلى ثم صاعداً ثانياً إلى ميلانو فمنحرفاً إلى نيس فمارسيليا .

وكانت كارين إلى جانبى تساعدنى فى قراءة الخطوط الدقيقة ساعة طرقت

هذه المرأة الباب بعنف واقتحمت علينا الغرفة بغتة ، وعلى صوتها الأجش الجاف انتفضنا ذعراً وسقطت نقطة كبيرة من الحبر لم تلبث أن غطت ثلاث مدن كبيرة وسودت الفضاء بين براغ وفرسوفيا وفيينا ، ولشد ما تشاءمت من ذلك الحادث وتطيرت له وهماً حتى ذلك المساء وأنا أعبر نهر إلبي من ضاحية فيزر هرش إلى درسدن فإذا بركاز من الحديد ينصبها بعض الجند على جوانب الجسر وقد برزت فوهات المدافع من جوانبها ، والناس يتجمعون إزاءها من بعد ، وهم فى ذهول وذعر ووجوم ، وفى الساعة الثالثة غادرت فراشى لأستقل آخر قطار يغادر المدينة على نذير الحرب ! وكانت أوروبا كلها ترقص فى هذه الليلة على فوهة البركان الثائر .

وظلت هذه المشاهد والحوادث تتوالى على خاطرى كأنني استعرض شريطاً سينمائياً وعيناى غائصتان فى لجة الليل القاتم وأنا فى يقظة كالحالم حتى أفقت على ضوضاء وأصوات تتجاوب بها أرجاء الميدان ، وأسرعت إلى ردهة الفندق هابطاً درج المدخل فإذا بالخادمة وقد وقفت ترقب المشهد من حانوت بائعة التبغ المجاور وفجأة نظرت إلىّ وهى تهتف : مس "كارين" ! مس "كارين" ! فوثب الدم فى عروقى وتطلعت أمامى فإذا بها فى ذات الثوب الأزرق الذى رأيتها فيه أول مرة وكان وجهها ينم عن فرح بلقائى رغم الحوادث التى توالت فى هذا اليوم على العالم .

ومدت يدها إلىّ فاحتوت كفى راحتها الصغيرة وهى تنبئنى بسرورها لعودتى ، وأسفها على انقطاع رحلتى ، وسألتنى إن كنت سأبقى غداً فى برن فقلت : غداً يا عزيزتى أخبرك فليس لى أن أقول شيئاً هذه الليلة فربما جدت حوادث أخر ، قالت : لقد أعلن المذياع نبأ اغلاق الموانىء الايطالية وانقطاع المواصلات بين فرنسا وإيطاليا ، ولا أحب أن أزعجك عن راحتك

بمثل هذه الأنباء التى تعتبر عادية بالنسبة للمتوقع ! قلت حسناً "يا كارين"
وارتفع الضجيج فى تلك اللحظة واختلطت الأصوات من صدحات أبواق
ودقات طبول وخطوات جند وخيول وعربات وسيارات موسوقة بالمدافع
والذخائر ولفائف الأسلاك الشائكة وغيرها من أدوات الميدان .

وجذبتنى "كارين" إلى منحنً قريب يشتد فيه الضوء ، ونكاد نلمس منه
بأيدينا الجنود وهم يمرون بخوذاتهم اللامعة تحت الأضواء ورذاذ المطر ،
وجباههم متألقة بالعرق وقطرات الماء ، وعيونهم اليقظة الصافية تومض بالقوة
والفتوة والأمل ؛ كانوا يسيرون صفوفاً بخطواتهم ذات الإيقاع الموسيقى
الرتيب ، يغمرهم الجلال وتفيض عنهم الروعة ، وينطق موكبهم بأنبل
المعانى ، وكانت "كارين" الحسناء تلوح بمنديلها الأبيض وتنثر على شبابهم
ابتساماتها وهم يومئون بنظراتهم المقدرة المعبرة عن ابتهاجهم بهذه
التحية الصادقة ، وأثر فىّ هذا المشهد الرائع وهزّ أعصابى هزاً عنيفاً ، فقد
ذكرت وطنى وذكرت مانحن مقبلون عليه فى غدنا من جد الحياة وجلادها ،
وقلت لنفسى هل يتاح لى أن أرى لمصر مثل هذا الشباب المستقتل المتفانى
وهو يسير فى موكب الحياة مفتول السواعد مشبوح العظام ؟ وهل يقدر
الله لى أن أشهد فتياتنا وقد وقفن مثل هذه الحسناء ، وفى مثل هذا المنحنى ،
تحت الظلام والمطر والريح القارس لينثرن ابتساماتهن على جباه شبابنا
البواسل وهم فى طريقهم الى الميدان .

واختفى خيال الموكب الكبير ، وتلاشت أصداؤه على رنين ساعة الميدان
وهى تدق مؤذنة بانتصاف الليل .

وأمسكت يدى بيدها وسارت بى إلى الفندق ، وأنا مفعم القلب بأحاسيس
مبهمة ، ونوازع غامضة أكاد أترنح منها لذة ونشوة .

ووقفنا فى الردهة وهى تقول : إن سفر عشرين ساعة فى القطار وفى مثل هذه الظروف السيئة يتقاضاك الراحة الآن وأنت متعب ولا شك ، قلت : إن لقاءك ياعزيزتى راحة المتعب وشفاء العانى ، قالت : أراك ذلق اللسان لبق العبارة فتعال بنا نشرب القهوة معاً وتحدثنى بأنباء رحلتك منذ فارقتنا .

وتكلمت مع الخادمة ودخلنا غرفة الموسيقى بعد أن أغلقت بابها ثم تهافتت على مقعد صغير وهى تقول : الآن يطيب الحديث .

قلت : حبذا حديثك أنت " يا كارين" فإنى فى حاجة إلى مايبهجنى .

قالت : أسفاً يا صديقى فإن هذه الحرب كما سدّت طريقك فقد سدت طريقى أيضاً .

قلت : هذه مفاجأة ولا شك فبالله حدثينى .

قالت : كنت على وشك السفر إلى باريس صباح أمس وكادت تكون هذه الليلة أولى ليالىّ فى الأوبرا ولشد ما كنت سأحلم بالسعادة والمجد وأنا أرتل النشيد على موسيقى بللينى فى أوبرا « نورما » فى موسم هذا العام .

قلت : لا علم بذلك يا صديقتى .

قالت : أنت تعرف أنى قضيت عامين فى ميلانو أتلقى فن الغناء وأنى اشتركت فى أغانى أوبرا " كوستانتينو" التى وضع ألحانها " فرنسسكو جاسبارين" كما اشتركت فى غنائيات كثيرة فى روكال وسكالا وكانت تؤثرنى بإعجابها المغنية الراقصة " جابر ييلا بيزانسونى" بطلة « كارمن » .

قلت : أنت لا زلت فى مطلع شبابك ، ومستهل حياتك ، ولا تزال أمامك الأيام طويلة بعيدة الآماد ، المستقبل لك ياعزيزتى فلا تأسْ على شىء فربما انتهت الحرب قريباً جداً .

قالت : إن التفاءل يرضى الأحلام ويقنع الأوهام بعض الأحيان فلنحلم ولنتوهم !

قلت: إذا شئت فإنى سأجعل لك من هذا الحلم حقيقة محسوسة ومن هذا الوهم واقعاً ملموساً .

قالت : أسرع إذن فإنى واثقة بك .

قلت : فكرى ياسيدتى قليلا فى باريس ، ولنجعل من برن باريس ، وليكن هذا الفندق هو دار الأوبرا ، ولتكن غرفة الموسيقى هذه هى المسرح ، أما هذه الموائد والأرائك فهم النظارة ، فانهضى الآن أيتها الفنانة الشابة ، ومرِّى بأناملك الفاتنة على هذا البيان ، ووقِّعى اللحن وأرسلى صوتك القوى الحنون بأغانى نورما . ولتفض روحك بأرخم النغم وأرقّه وأبدعه ! ولتملكى قلب هذا الأثير ، وليكن لك فيه ملك الغناء الخالد .... وفتح الباب ودلفت منه الخادمة بإناء القهوة ، قلت : قفى يا آنسة وضعى هذا الاناء بعيداً ثم خذى مجلسك على يسار هذه الملكة الموعودة . . فارتبكت الفتاة وفتحت فمها دهشة ، وضحكت "كارين" وهى تشير إلى المقعد الصغير على يسارها وكأنها تدعو الفتاة إلى تلبية هذه الدعوة . . وأقبلت الفتاة وقد زايلها ارتباكها وخجلها وانفرجت شفتاها عن ابتسامة جميلة فهتفت "كارين" بها قائلة . . . إسمعى يا « إرنا » إن هذا الساحر يتكلم الآن بروح أجداده ، هؤلاء السحرة يعاقبون الذين لايطيعونهم ولا يأتمرون بسلطانهم . وهأنذا أقدم فروض طاعتى . . واعتدلت فى جلستها وقد اتخذت هيئة الملكة الشادية وبدأت إنشادها بصوت يتماوج مرحا ، ويتفجر شباباً ، ويترسل صفاء ، وعذوبة ، وسحراً ؛ وانفعلت بغنائها هى فاستحالت طيفاً راقصاً نابضاً باهتزازات هذه الأنغام المنطلقة فى سكون الليل تودِّع السلام ، والحبَّ ، والرحمة فى قلب هذا العالم .

وصفقنا لها كثيراً . وصفقت ، لنفسها ونهضت واقفة وقد حارت دمعة صافية فى عينها وهى تقول : بالله إنى متأثرة أكاد لا أملك نفسى ، هلمَّ إلى

غرفتك الآن يا صديقي فإنى سأنام هنا فى غرفة خالتى ، فعم مساء وإلى الصباح ، قلت : تنامين الآن ؟ قالت : وهل فى ذاك غرابة ، قلت : كلا ، وصافحتها بحرارة كأنما كنت أودعها .

وفى الصباح راجت الشائعات بأن الأمم الصغيرة معرضة للغزو لأنها منافذ إلى فرنسا ولأن حدودها خالية من الحصون الفولاذية ونصحنى من أثق به أن أغادر البلاد فوراً وإلا عرضت نفسى لمتاعب هائلة .

وتناولت طعام الغداء عجلا ......

.... ووقفت " كارين" بالحمال العجوز على باب غرفتى وأنا أجمع ثيابى وأطوى معطفى على يدى . وهبطنا الدرج حتى الباب الخارجى ، وكان المطر شديداً ، والبرق يلمع فى جوانب السماء ، كأنه حراب القدر تصرع الزمن العاتى ، وقبلت يدها وهى تضغط بها على فمى كأنها تقبلنى هى الأخرى وأخذت طريقى الى المحطة وأنا أقرع بقدمى أحجار الطريق والمطر ينهمر مدراراً فوقى ويكاد ينفذ من ثوبى والمعطف لايزال مطوياً على يدى وأنا مستغرق فى شرودى مستعيداً حلم الأمس الجميل !

باريس

وعلى غير المتوقع اهتز قلب الاثير بالنبأ الخطير : أن الالمان داخل أبواب باريس ! وقد سلمت باريس نفسها إلى الغزاة ، وانهارت الجمهورية الثالثة ، ومضى القدر فى سخريته فحل عيد الحرية بعد أيام من هـذا الحادث فاذا الاحرار مستعبدون وإذا مدينة النور ترسف فى الظلام . وقد صور الشاعر إحساسه بذلك الحادث التاريخي ذاكراً باريس فى محنتها ، مطوفا بمعالمها الحبيبة إلى نفسه ، وكيف لايذكر الشعر الكونكورد ونافورتيه العظيمتين والمسلة المصرية السامقة ؟ وكيف لايهيب بنابليون فى مرقده بالانفليد ؟ وكيف لايهتف بالثوار فى ساحة الباستيل ؟ بل كيف لا يبكى أجمل الليالى وأمجد أعياد الحرية فى حدائق فرساى ! وأخيرا كيف لايذكر الشعر فرنسا بمبادىء ثورتها التى كفرت بها حتى سول الجنرال سراى لنفسه أن يقذف عاصمة الامويين بقنابل مدافعه منذ ستة عشر عاما !.

سألونى عن بيانى وقصيدى ... آسفاً . باريس ! قد مات نشيدى !
لك ذكراك ولى عهـدٌ بها ... كيف أنسى ذكرياتى وعهودى
أنا لا أنسَى ليـــالىَّ على ... روضكِ الرفَّاف بالزهر النضيد
ثَمرُ الفكر ومجْـــنَى نَوْرِهِ ... ومراح العينِ والقلبِ العميد
خطرةٌ عابرة عدتُ بهـــا ... عودة الغوّاص بالدر الفريد
فاعذرى المزهر فى كفى إذا ... أخرسته ضجةُ الرزء الشديد
يوم قالوا جلّل القيدُ يداً ... حطَمتْ بالأمس أصفادَ العبيد
حملتْ مشعـــل حرياتهم ... فى شُراقٍ من شباب المجد صيد
كيف يا باريس بالله هوى ... ذلك النجم من الأفق البعيد ؟

إن ينلْ منك المغيرون فما فتحوا غير تخوم وحدود !
لستِ بنياناً ، ولا أرضاً ، ولا غاب آساد ، ولا جنّةَ غيد
أنت معـــنى عالمُ الفكر به يتحدّى قبضةَ البــاغى المريد
كعبة الأحرار ! هذى محنة راعتِ الأحرار فى أكرم عيد
صُرع النـــورُ به وانحسرت جبهة الشمس عن النور الشهيد
وأتى الليل ، ومن أهواله أن تُرَى بين ظلام وقيــود
أين من فرســاى أفقٌ ضاحك مشرقٌ عن أمل الشعب السعيد
وعلى كل طريق موكبٌ صادح الأبواق خفــاق البنود
لكأنى اليـــوم ألقى مأتماً وأرى الكنكرد كالقبر الحريد
حال شدوُ المـــاءِ فى أحواضه نفثة الغرقى ببحر من صديد
وقفتْ مصرُ به ســــاخرةً من نحوس تتوالى وسعود
غلب الصمتُ عليهـــا وهى فى صمتها الخــالد طِلّسْمُ الوجود
ساحةَ الباستيل ! حان الملتقى وتعالت صرخة الفجر الوليد
أين أبطالك ؟ ماذا ! أتُرى ضربَ الليـل عليهم بالوصيد ؟
أغمدوا أسيافهم ؟ ويْحَ . وما عوَّدوا أسيافهم حبس الغمود
ويحهم قد شيعوا أعيادهم بين عصف النار أو قصف الحديد
فوق أرض صُبِغتْ من دمهم وتحدّتْ كل جبـــار عنيد
فوق أحجارك صرعى أمسهم فلذاتٌ كـتبتْ سِفْرَ الخلود
فاذكريهـم بالذى مرّ بهـم واقرئى تاريخهم ، ثم أعيدى !

أيهـــا العائدُ من غاراته راقداً تحت قباب « الأنقليد »
تلك راياتك ، فانظر ! أترَى من سيوف تحتها أو من جنود ؟
أين من برلين أو آفاقها جيشك الظافر بالجيش البديد
تطأ الأرض إلى مشرقهـــا مُوغلاً فى أثر الدُّبِّ الشريد
لفرنسا هِمـــةٌ لا تنثـنى أمشت فى النار أم تحت الجليد
بالقليـل الجمع من أبنائها تنزع النصر من الجمع العديد
أممٌ ترسـف فى أحقـادها دِنْتَهَا بالصفح والصنع الحميـد
لم تسيِّرْ فوقهـــا دبّابة أو تباغتهـا بطير من حديد
شَرَفُ الحرب كما لُقِّنتَـــهُ ملتقى سيفين فى ظل البنود
فاعـذر اليوم فرنسا إنهــا وثقت بالعهد فى دنيـا الجحود
قرعت للنصر كأسـا ! ويحهـا ! صرعتها خمرة النصر التليد !
رقدت عن غـدها وانتبهتْ حيث لاينفع صحوٌ من رقود
أسفرت سيدانُ عن مأساتهـا وتهاوى حجر الحصن المشيد
ثغرةٌ أُنفِذَ منهـــا خنجرٌ قد تلقّتـه على حزِّ الوريد
شهد المجــــــد لها باسلة خُضِّبت بالدم من نحر وجيد
فابعث العــــزة من تاريخها وتألَّقْ بسنـاه من جديد
واطلع اليوم عليها سـيرةً وكن الشاعر واهتف بالقصيد :
أيهـا الفـاتح لا يغررك ما أنت فيه من حصون وسدود
لك فىَّ العـــبرةُ المثلى فلا تأمن الزلة فى أوج الصعود !

رَبَّةَ النور سـلاماً كلما — هتف الشعر بماضيك المجيد

لك فى كل خيال صورةٌ — برئتْ من وصمة العصر الجديد

غير ذكرى يرجع الفكر بها — لليالٍ من عصور الظلم سود

لهف نفسى لدمشْقٍ ولمن — خر فيها من جريح وشهيد

من شواظ يقذف الموت على — رُكَّعٍ فى ساحة الله سجود

فأنا الشرقىُّ لا أنسى الذى — حاق من حكمك بالشرق العتيد

المساواة التى أعلنْتِها — أعلنَتْهُ بنذير ووعيد

والإخاءُ الحرُّ ما كان سوى — مدفع يرمى بمُرْدٍ ومبيد

وطنى الروحىُّ ، إن أغضبْ له — فلآباء كرام وجدود

وتراثٍ خالد من أدب — أنا فاديه بروحى ووجودى

كفرت ثورتك الكبرى به — وهو المحسن يُجزَى بالكنود

سار بالإسلام نوراً وهدًى — بسنى عيسى خُطى الحق الطريد

النبيّون همو ثواره — حاملوا الشعلة ، أعداءُ القيود

فخذى بالحق والروح الذى — هز بالثورة أركان الوجود

وابعثيها ثورة أخرى فما — يعرف الأحرار معنى للجمود !

من مراجع الكتاب

Verlaine, his life & his work (T. Werner Laurie,).
طبعة لندن ١٩١٩ .

(Titans of Literature) (By Burton Rascoe) طبعة لندن ١٩٣٣ .

Baudelaire Poems in Prose (Arthur Symons) طبعة لندن ١٩٢٨ .

Arthur Symons's Baudelaire, a study (Elkin Mathews).
طبعة لندن ١٩٠٩ .

Baudelaire, Fleurs Du Mal (Beresford Egan & C. Bower Alcock).
طبعة لنـدن سنة ١٩٢٩ .

An Anthology of World Poetry طبعة لنـدن سنة ١٩٣٠ .

Anthologie des Poètes Francais (Fernand Mazade).
طبعة باريس سنة ١٩٢٥ .

رمز هـذا الـكتاب

آثر الملاح التائه أن يكون لمؤلفاته رمز خاص به وقد وفق الفنان الزميل ميشيل فوتى المهنـدس فى الرسم الموجود على غـــلاف هذا الـكتاب والذى سيكون بعونه تعالى رمزاً لجميع مؤلفات الملاح التائه فلفنه الشكر والتقدير .

فهرس